الناصر لدين الله العباسي
مظاهر استعادة قوة الخلافة والنظرية الحتمية لابن خلدون

عبد الله منسي العمري*

ملخـــص

تحاول هذه الدراسة إعطاء مثال تطبيقي من التاريخ العباسي على نظرية ابن خلدون فيما يتعلق بالأطوار التي تمر بها الدولة، وخاصة في مرحلة السقوط والانهيار. فالدولة في أواخر أيامها قد تبدو قوية معافاة، ولكن هذه المعافاة في الواقع هي ومضة الخمود والانطفاء.

لقد ظهرت حالة مشابهة لما تحدث عنه ابن خلدون في العصر العباسي، في عهد الخليفة الناصر لدين الله، فقد حاول الناصر، وبوسائل شتى، أن يستعيد قوة الخلافة، وأن يحكم قبضته على مقاليد الحكم، ولكن مغامراته العسكرية وأحلافه السياسية ومحاولاته الاجتماعية ــ بما في ذلك تقربه من العلماء وإحياؤه لمنظمة الفتوة ــ كل ذلك لم يغن عنه ولا عن الخلافة العباسية شيئاً، فآلت الخلافة إلى نهايتها المحتومة وهي الدمار والسقوط.

يرى ابن خلدون أن الدولة تمر بأطوار طبيعية، تتدرج من القوة والمنعة، إلى الضعف والانحلال، ثم الزوال، وهذه الأطوار مراحل لا بد لكل دولة من أن تمر بها[١]. ومع ذلك، فهو يرى أن الدولة في أخر عهدها قد تشهد بعض مظاهر القوة التي توهم بأن الهرم قد ارتفع عنها، وأنها قد استعادت شيئاً من قوة ومجد، ولكن يجب أن لا ننخدع بذلك، فإن هذه الومضة هي ومضة الخمود، مثلما يومض السراج المشتعل عندما يوشك على الانطفاء[٢].

إن هذا التصوير لحال الدولة يصدق كثيراً على الفترة موضوع البحث، وعلى شخصيتنا التي تمثل المحور الأساسي لهذه الدراسة، فالناصر لدين الله العباسي، الذي تولى الخلافة بعد مرحلة ضعف طويلة مرت بها الخلافة العباسية، حاول أن يعيد للخلافة مجدها الغابر، وأن يسيطر على مقاليد الأمور بنفسه، وأن يحكم قبضته على دولته، غير أنه رغم كل محاولاته عبر فترة حكمه الطويلة، واختلاف أساليب هذه المحاولات لم ينجح في تحقيق ما هدف إليه، أو على الأقل توقفت المحاولات بموته. فوجدنا هذه المؤسسة التي حاول بناءها، وحاول استعادة مجدها السابق، قد عادت إلى حالة من الضعف والتردي، تؤذن بزوال الخلافة العباسية، وخراب أراضيها واحتلالها بشكل كامل من قبل المغول. إن موضوع هذه الدراسة يركز على إبراز أهم الخطوات والأساليب التي لجأ إليها الناصر من أجل استعادة مجد الخلافة الضائع، وهي محاولات جديرة بالإعجاب، كما سنرى.

إن الدارس للخلافة العباسية في الفترة التي سبقت الناصر لدين الله مباشرة يرى أن الخليفة كان رهينة مجموعة من المتنفذين في الدولة كالوزير وأستاذ الدار[٣] وغيرهما. فقد كان الخليفة المستنجد (٥٥٥/١١٦٠ ــ ٥٦٦/ ١١٧٠) قد وقع تحت تأثير وزيره ابن هبيرة (ت ٥٦٠/ ١١٦٥)، الذي كان أيضاً وزيراً لأبيه المقتفي (٥٣٠/ ١١٣٥ــ٥٥٥/١١٦٠) من قبله، وكان ابن هبيرة مسيطراً على أمور الخلافة بقوة، ثم إنه بعد موت ابن هبيرة، وبعد التخلص من ابنه المرشح لخلافته، استطاع المستنجد، ولكن لفترة قصيرة ٥٦١/١١٦٦ــ٥٦٣/١١٦٨، أن يستعيد قوته وأن يمارس صلاحيات الوزير وقائد الجيش[٤]، إلا أن هذا الاستقلال لم يدم طويلاً، ففي عام ٥٦٣/١١٦٨ استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بأبن البلدي، وكان ناظراً بواسط[٥].

وهناك سببان جعلا الخليفة يرقي ابن البلدي: أما الأول فهو ما أظهره ابن البلدي من كفاية عظيمة أثناء تصديه

* قسم التاريخ، جامعة اليرموك، اربد، الأردن. تاريخ استلام البحث ١٩٩٨/٣/٣١ وتاريخ قبوله ١٩٩٨/١٢/١٥.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٩ــ٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٢ــ٣٦٣.

(٣) أستاذ الدار، أو الأستادار، لفظ يطلق عادة على من يتولى قبض المال للسلطان وصرفه.

(٤) Herbert Mason, Two Statesmen of Mediaeval Islam, Mouton & Co., 1971, 71-72.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص ٩٨.

لقوات شملة صاحب خوزستان، وابن أخيه قلج قائد جيوشه، الذي أرسل إلى الخليفة المستنجد يطلب شيئاً من البلاد ويشتط في الطلب، مهدداً بذلك سيطرة الخليفة على البصرة وواسط والحلة[٦]. وقد تمكن ابن البلدي، حاكم واسط آنذاك، من هزيمة قلج، مجبراً قوات شملة على التراجع إلى خوزستان، وواضعاً حداً لهذا التهديد. وهكذا فقد قام الخليفة بترقية هذا الجندي المتميز حاكم واسط إلى منصب الوزارة[٧]. أما السبب الثاني فهو النفوذ الذي تمتع به استاذ الدار عضد الدين، الذي ورث ذلك المنصب عن والده، الذي شغل المنصب نفسه في عهد المقتفي. لقد كان لعضد الدين دور كبير في تولية الخلافة للمستنجد عندما قام بمساعدة الأخير في التخلص من مؤامرة أخيه أبي علي، الذي حاول مع والدته تدبير انقلاب على ولاية عهد المستنجد وقتله أثناء احتضار والده المقتفي، فقام عضد الدين بسجن أبي علي وأمه، كما قتل المشاركين في المؤامرة كلهم[٨].

ونتيجة لذلك فإنه يبدو أن الخليفة الجديد المستنجد أصبح حذراً وخائفاً من أن يقع تحت سيطرة عضد الدين، لذلك فقد لجأ إلى الخيار الآخر الذي يملكه وهو تعيين ابن البلدي في منصب الوزارة[٩]. وقد أدى هذا التعيين إلى ظهور تنافس شديد بين الرجلين، كما أدى في نهاية الأمر إلى مقتل المستنجد على يد أستاذ الدار عضد الدين وصاحبه قايماز، فعندما مرض الخليفة وخاف من مؤامرة تستهدف حياته كتب رسالة إلى وزيره ابن البلدي، بحضور طبيبه ابن صفية، يأمره بالقبض على أستاذ الدار عضد الدين وعلى قطب الدين قايماز، كبير أمراء بغداد، ولكن الطبيب قام بإيصال الرسالة إلى أستاذ الدار وقايماز اللذين طلبا منه العودة للخليفة واخباره بأنه أوصل الرسالة إلى الوزير، ثم اتفقا على قتل الخليفة، حيث أدخل الحمام وهو يستغيث دون جدوى، وأغلق عليه الباب إلى أن مات[١٠]، ثم قام أستاذ الدار وقطب الدين بإعلان وفاة الخليفة، وأحضرا ابنه أبا محمد الحسن، وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً منها أن يكون عضد الدين وزيراً، وأن يصبح ابنه كمال الدين أستاذ الدار، وأن يعين قطب الدين أميراً للعسكر، فأجابهم إلى ذلك[١١]. وهكذا أصبح المستضيء رهينة في أيدي قتلة أبيه، الذين بدأوا يعدون العدة للتخلص من الوزير ابن البلدي الذي كان بعيداً عن بغداد، وعند عودة الأخير إلى بغداد وجد نفسه في عزلة تامة، ثم أجبر على حضور حفل تنصيب الخليفة، حيث أعطى البيعة للخليفة الجديد، ثم ألقي القبض عليه وقتل، وقطع أرباً وألقي في نهر دجلة[١٢]. ومن سخريات القدر أنه عندما نهبت دار الوزير ابن البلدي بعد قتله عثر بين أوراقه على أوامر من الخليفة بالقبض على أستاذ الدار عضد الدين وعلى قطب الدين قايماز، ولكن ابن البلدي كتب رسالة رداً على ذلك يراجع الخليفة في قراره ويطلب عدم القبض عليهما، فتيقنا من براءة الوزير وندما على قتله بعد فوات الأوان، إذ كانا يعتقدان أن ابن البلدي كان يحرض الخليفة على التخلص منهما[١٣].

وقد أثنى المؤرخون العرب على الخليفة المستنجد، فوصفوه بأنه كان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأنه ألغى الكثير من الضرائب[١٤]. لقد حاول المستنجد استعادة قوة الخلافة والهيمنة على مقاليد الأمور، إلا أن الصراع بين كبار رجال الدولة الطامعين في السلطة ألقى بظلاله على فترة خلافته، وأدى بالتالي إلى أن يدفع حياته ثمناً لذلك الصراع، وإلى إبقاء تركة صعبة للخليفة القادم، المستضيء.

عندما تولى المستضيء الخلافة (٥٦٦/١١٧٠ ــ ٥٧٥/١١٨٠)، لم تكن أحواله تختلف كثيراً عن عهد والده، فقد ذكرنا كيف أخذت عليه الشروط لقتلة أبيه منذ توليه الخلافة، ومع ذلك، فكما أثنى المؤرخون من قبل على والده، فقد أثنوا عليه أيضاً بأنه كان عادلاً، حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، وأن الناس كانوا معه في أمن عام، وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون لم يروا مثلها[١٥].

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٧) Mason, 72.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦٨، ٦٩.

(٩) Mason, 72.

(١٠) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠٩.

(١٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤٨.

تميزت فترة حكم المستضيء بسيطرة ثلاثة رجال على السلطة وتنافسهم فيما بينهم، وهؤلاء الثلاثة هم: قطب الدين قايماز، وعضد الدين الذي كان شريكاً لقطب الدين في المؤامرة ضد المستنجد، وابن العطار صاحب المخزن[١٦]. أما أقوى هؤلاء الثلاثة فكان قايماز، فقد أجبر الخليفة في عام (١١٧١/٥٦٧) على عزل وزيره عضد الدين أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء[١٧] . وبذلك يكون قايماز قد حصل على نفوذ شبه كامل في بغداد والأقاليم الأخرى الواقعة تحت سيطرة الخليفة، حتى بداية الصراع مع الخليفة على الأقل سنة (١١٧٤/٥٦٩)، وما تبع ذلك من تطورات في عام (١١٧٥/٥٧٠) [١٨]، ففي شوال من عام (١١٧٥/٥٧٠) قام قايماز بمساعدة صهره تنامش بمحاولة لقتل ظهير الدين ابن العطار، صاحب المخزن، نتيجة كرهه لابن العطار الذي كان مقرباً من الخليفة، فهرب ابن العطار إلى دار الخلافة، فقام قايماز بإحراق داره، ثم قصد دار الخليفة لعلمه أن ابن العطار فيها، فلما علم الخليفة ذلك، ورأى الغلبة، وكان على معرفة بصورة قايماز المقيتة لدى الناس، صعد الى سطح داره، وظهر للعامة، وأمر خادماً فصاح واستغاث وقال للعامة : "مال قطب الدين لكم ودمه لي"، فقصد الناس دار قطب الدين فنهبوها، وخلال ساعة من الزمن كان الناس قد أتوا على جميع مقتنياتها الثمينة. وبعد ذلك خرج قطب الدين قايماز وتنامش من بغداد واتجها الى الحله ثم الى الموصل، وهلك قايماز في طريقه الى الموصل نتيجة ما لحقه من شدة الحر والعطش [١٩] .

وبعد التخلص من قايماز أعاد الخليفة وزيره المعزول عضد الدين ليتسلم الوزارة من جديد[٢٠] . وقد استمرت وزارة عضد الدين الثانية حتى مقتله سنة (١١٧٨/٥٧٣) على يد مجموعة من رجال الباطنية الحشيشية، عندما كان في طريقه لأداء فريضة الحج . وقد وصفه المؤرخون أنه كان حافظاً للقرآن، وأنه سمع الحديث، وله معروف كثير، وأن داره كانت مجمعاً للعلماء[٢١] .

بعد مقتل الوزير عضد الدين، قام المستضيء بتعيين ظهير الدين ابن العطار في الوزارة، حيث وصف بأنه كان خيراً، حسن السيرة، كثير العطاء، إلا أن نهاية هذا الوزير أتت بعد وقت قليل من وفاة الخليفة المستضيء،ففي الثاني من ذي القعدة لعام (١١٨٠/٥٧٥) توفي المستضيء، فقام ابن العطار بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله، ولكن الناصر تخلى عن ابن العطار، وأمر بمصادرة ممتلكاته وبقتله، حيث مثل الغوغاء بجثته أبشع تمثيل . وبدأ عهد الخليفة العباسي الجديد الناصر لدين الله، الذي تعد خلافته أطول فترة حكم في العهد العباسي، بارسال المبعوثين لأخذ البيعة من الولاة في الأقاليم البعيدة، وبإنفاق الأموال بسخاء على أهل بغداد[٢٢] . وهكذا استهل الناصر خلافته بقبضة قوية على مقاليد الحكم، حيث يعود الفضل في ذلك، ولوجزئياً، الى ما هيأه له والده من قبل، وخاصة ما كان من تخلصه من قايماز[٢٣] .

كان الناصر في الثانية والعشرين من عمره عندما تولى منصب الخلافة، وقد كان واحداً من والدين للخليفة المستضيء من زوجته التركية زمرد[٢٤]، أما الابن الآخر للمستضيء فكان اسمه "هشام" وعرف بأبي منصور، ويبدو أنه كان المفضل لدى الخليفة المستضيء لولاية العهد، وأنه كان مدعوماً من قبل عدد من ذوي النفوذ في العاصمة، ولذلك فإن تخلص الناصر من الوزير ابن العطار، الذي كان من مؤيدي أخيه أبي منصور، كان يمثل قضاءً أية قوة في بغداد تعارض توليه الخلافة[٢٥] .

ويمكن القول بأن الخليفة العباسي الشاب قد اتبع مجموعة من الأساليب من أجل السيطرة على الحكم يمكن تصنيفها في مجموعتين : سياسية –عسكرية، من جهة، وسياسية–اجتماعية–دينية من جهة ثانية . وسوف نحاول في

(١٦) يرى ابن الأثير بأن ابن العطار كان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٨) Mason, 78-79.

(١٩) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥١–٦٥٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤–١٣٥.

(٢٠) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٥.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨–١٤٩.

(٢٣) Mason, 81.

(٢٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

(٢٥) Mason, 86.

الصفحات التالية إعطاء بعض النماذج والأمثلة التي تدلل على ما نذهب إليه .

عندما نتحدث عن المحاولات السياسية-العسكرية التي قام بها الناصر من أجل تدعيم سلطته لابد من الاشارة الى نقاط أساسية منها: سيطرته على مؤسسة الوزارة وعلى الإدارة بشكل عام، والمحاولات العسكرية التي حاول من خلالها أن يوسع نطاق المنطقة التي تسيطر عليها بغداد، إضافة الى مجموعة من التحالفات التي عقدها لمصلحته .

لقد بدأ الناصر عهده، كما أشرنا سابقاً، بالإفصاح عن قدرته على اتخاذ خطوات جريئة، من خلال تخلصه من ابن العطار، وهكذا فقد أراح نفسه من وجود مسؤول كبير، كالوزير، له سطوته على الأمور، مما أعطاه منذ البداية استقلالية في الحكم واتخاذ القرار. وقد زار الرحالة ابن جبير مدينة بغداد عام (١١٨٤/٥٨٠)، ووصف دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد، ثم أشار الى أن الخليفة ليس له وزير، وإنما له خديم يعرف بنائب الوزارة(٢٦)، وأن من مهامه أن يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة، وبين يديه الكتب، فينفذ الأمور . وللخليفة أيضاً قيم على جميع الديار العباسية وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضم الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار، يدعى له اثر الدعاء للخليفة، وهو قلما يظهر للعامة، اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها، والتكفل بمغالقها ليلاً ونهاراً(٢٧).

وفي عام (١١٨٧/٥٨٣) أمر الخليفة بقتل مجد الدين هذا، لأنه كان متحكماً في الدولة دون الخليفة، ولأنه اتهم بجمع اموال كثيرة، وكان الذي وشى به الى الخليفة أحد أصحابه وصنائعه وهو عبيد الله بن يونس . ويبدو أن الناصر قد وجد في هذا الاخير الشخص المنناسب لمنصب الوزارة، فقلده ذلك المنصب ولقبه جلال الدين(٢٨).

ويظهر من خلال هذا الإجراء ان الخليفة وجد نفسه بحاجة الى القضاء على منصب أستاذ الدار، وعلى إيجاد قوة

(٢٦) يشير ابن جبير إلى بعض مهام نائب الوزير وأنه كان مكلفاً بديوان الخلافة. انظر Mason, 87, note 7.

(٢٧) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٠٢ـ٢٠٣.

(٢٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩؛ ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٩٣؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٧٤؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.

معادلة لقوته . وبالإضافة الى ذلك فقد كان الخليفة بحاجة الى شخصية تحظى بالشعبية ليسلمها منصب الوزارة في هذه السنة، ليحصل على الدعم اللازم لمواجهة طموحات السلطان طغرل بن أرسلان(٢٩) ، وقد كان ابن يونس من فقهاء الحنابله وله مصنفات في الفرائض والوصايا وأصول الدين(٣٠) ، ولكن الأهداف التي رسمها الناصر من خلال تعيين ابن يونس في منصب الوزارة لم تتحقق.

عندما ترددت الأخبار عن الوزير نصير الدين ناصر بن مهدي الشريف العلوي بأنه يريد أن يدعي الخلافة لنفسه، قبض عليه وعزله وحبسه في داره سنة (١٢٠٧/٦٠٤)(٣١)، وقيل ان سبب عزل هذا الوزير كان راجعاً الى إساءته السير مع أكابر مماليك الخليفة، مثل أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع، الذي هرب الى الشام، ثم تبعه قشتمر وهرب الى دسقان، وكان من أخص مماليك الخليفة(٣٢).

لقد كان الناصر مصمماً على أن لا يقع تحت سيطرة احد من كبار رجال الدولة، ويدل على ذلك المراقبة والمتابعة والنقل المتكرر والعزل لكثير من موظفي الدولة . وتعطينا المصادر أمثلة كثيرة على ذلك، فيصفه ابن الطقطقا بأنه كان يحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه، ويتابع ولاته وموظفيه، فكان كل أحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه ويحاذره، بحيث كأنه يطلع عليه في داره(٣٣)، ويمكن أن نستدل من ذلك أيضاً على أن الناصر كان لا يثق بكثير ممن عمل في خدمته. وقد أشرنا قبل قليل الى مسأله التخلص من ابن العطار وأستاذ الدار الصاحب مجد الدين والوزير العلوي، ففي سنة (١٢٠٨/٦٠٥) عُيّن أبو الفتوح المبارك بن عضد الدين أبي الفرج صاحباً للمخزن في بغداد، ثم

(٢٩) Mason, 92.

(٣٠) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٩٢.

(٣١) ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٢٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧ـ٢٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٤٧.

(٣٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٨.

(٣٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

عزل في آخر السنة لعجزه[٣٤] ، وفي سنة(١٢٠٩/٦٠٦) عزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة ونقل الى المخزن، وكان قد عين في نيابة الوزارة في السنة السابقة، وولي نيابة الوزارة مكانه مكين الدين محمد القمي كاتب الانشاء ولقب مؤيد الدين[٣٥] .

لقد كانت التحديات العسكرية التي واجهنها بغداد زمن الناصر كثيرة، فعندما تسلم الناصر مهام الحكم لم يشمل نفوذه الحقيقي سوى المنطقة الممتدة من بغداد الى البصرة، بالإضافة الى واسط والحله، وفيما عدا ذلك لم يحظ الخليفة إلا بالاعتراف الشكلي، المتمثل بالخطبة والسكة، وحتى هذا الاعتراف الرسمي لم يكن ليحصل عليه في بعض الأحيان بسهولة، ففي سنة(١١٨٠/٥٧٥)، وبعد توليه الخلافة، سيرت الرسل الى المناطق لأخذ البيعة للناصر، وكان أن سير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان، صاحب همذان وأصفهان والري، فامتنع هذا الأخير من البيعة، فراجعه صدر الدين واغلظ له في القول، حتى انه قال لعسكره في حضرته : ما لهذا عليكم طاعة، بل يجب عليكم ان تخلعوه وتقاتلوه ما لم يبايع أمير المؤمنين، مما اضطر البهلوان الى البيعة والخطبة[٣٦].

كان الناصر مصمماً على حماية هيبة الخلافة واستعادة قوتها ومكانتها . وأهم الصرعات العسكرية التي دخل فيها الناصر كانت مع السلاجقة، وهو صراع قديم بدأه من قبله الخليفة المسترشد بالله(١١١٨/٥١٢-١١٣٥/٥٢٩) ومن أتى بعده من الخلفاء العباسيين، وخاصة الخليفة المقتفي لأمر الله (١١٣٥/٥٣٠-١١٦٠/٥٥)، فقد انتهز الخلفاء العباسيون فرصة ضعف السلاجقة وانقسامهم، وما أدى اليه ذلك من إضعاف علاقة السلاطين بالخلفاء العباسيين، فأخذ هؤلاء الخلفاء يعملون على استعادة سلطة الخلافة، عن طريق التخلص من النفوذ السلجوقي[٣٧].

كان سنجر أقوى وآخر سلاطين سلاجقة خراسان[٣٨]، وقد خطب له بالسلطنة نحو أربعين سنة[٣٩]، وبموت السلطان سنجر عام(١١٥٧/٥٥٢) ضعف حال السلاجقة عامة وسلاجقة العراق خاصة، ثم إنه تلا ذلك، في الستينات والسبعينات من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ظهور عوامل جديدة أدت الى إضعاف السلاجقة، ذلك أن أمراء سلاجقة العراق ازدادوا عدداً، كما انهم ازدادوا ضعفاً نتيجة لسيطرة أتابكتهم عليهم، فأصبح السلاطين مجرد أدوات بأيدي الأتابكة[٤٠] . ومن أمثلة ذلك أن الأتابك شمس الدين أيلدكز مملوك السلطان مسعود، منشيء اتابكية أذربيجان (١١٣٦/٥٣١-١١٥٣/٥٦٨)، كان أتابكاً ووصياً على أرسلان شاه بن طغرل بن السلطان محمد، ولم يكن أرسلان هذا سوى ألعوبة بيد أيلدكز الذي قام أيضاً بتعيين إينه البهلوان حاجباً لأرسلان، وبعد موت أيلدكز حل إينه اليهلوان محله ومارس سيطرته على السلطان، وعندما أبدى السلطان عدم رضاه عن هذا التحكم قام البهلوان بالتخلص منه، وعين محله إينه طغرل الثالث، الذي لم يكن له من السلطنة سوى الخطبة، في حين كانت البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان حتى وفاته[٤١] . واستمر هذا الحال حتى وفاة البهلوان سنة (١١٨٦/٥٨٢) .

أما الفترة الممتدة من تولي الناصر الخلافة سنة (١١٨٠/٥٧٥) وحتى وفاة البهلوان فلم تشهد صداماً مباشراً بين الخليفة والسلاجقة أو أتابكتهم، وبعد وفاة البهلوان حاول أخوه وخليفته قزل أرسلان أن يتحكم بالسلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان، إلا أن الأخير جمع حوله الجند والأمراء وبسط سيطرته على البلاد، مما اجبر قزل على الانسحاب الى اذربيجان ومراسلة الخليفة عارضاً خدماته على الناصر ضد طغرل . وهكذا فقد تطورت الأحداث في مصلحة الخليفة وهيأت له ضرب السلاجقة بعضهم ببعض والتخلص من نفوذهم[٤٢].

---

[٣٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٠؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧.

[٣٥] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٢؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧.

[٣٦] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.

[٣٧] الزهراني، نظام الوزارة، ص ٤٩.

[٣٨] السامرائي وآخرون، تاريخ الدولة العربية العباسية، ص ٣٣٥.

[٣٩] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٥.

[٤٠] الجومرد ونزار قادر، دور الخلافة العباسية، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م ٢١، ع٥، ص ٤١٩؛ السامرائي، ص ٣٣٦.

[٤١] الجومرد، ص ٤١٩؛ السامرائي، ص ٣٣٦.

[٤٢] الجومرد، ص ٤١٦ــ٤٢٠؛ السامرائي، ص ٣٣٦ــ٣٣٧.

ويبدو أن العامل الأخير المحرض على ضرب السلاجقة جاء من طرف السلاجقة أنفسهم ففي سنة (١١٨٧/٥٨٣) أرسل السلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان رسولاً الى بغداد يطلب من الخليفة أن يقوم بإعمار دار السلطنة، كي يسكنها عندما يصل الى بغداد، فما كان من الخليفة إلا أن أعاد رسول السلطان طغرل دون جواب، ثم أمر بنقض دار السلطنة فهدمت الى الأرض وعفى أثرها[٤٣].

كنّا قد أشرنا من قبل الى تعيين الناصر لعبيد الله بن يونس في منصب الوزارة، وأنه قد علق على ذلك آمالاً كبيرة . ففي سنة (١١٨٨/٥٨٤) جهز الناصر جيشاً ضخماً لمواجهة السلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان، وجعل المقدم على جيشه وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وكان طغرل يطمح في القدوم الى بغداد والإقامة في دار السلطنة، على ما ذكرنا . في هذا الوقت كان قزل أخو البهلوان (ت١١٨٦/٥٨٢) وصاحب همذان وأصفهان والري، يتمتع بعلاقة جيدة مع الخليفة، فقام قزل بإخبار الناصر بتحركات طغرل طالباً النجدة، وعندما علم طغرل بذلك حاول أن يستبق الأمور، وأن يأخذ زمام المبادرة، فما كان من الناصر إلاأن رد على ذلك بهدم دار السلطنة والكتابة الى قزل طالباً منه الاستعداد وواعداً إياه بإرسال النجدة[٤٤] .

وفي صفر سنة(١١٨٨/٥٨٤) خرج جيش الخلافة بقيادة الوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس قاصداً همذان للتصدي لطغرل بن أرسلان، وقد تمكن الأخير من اعتراض هذا الجيش قبل ان ينضم إليه جيش قزل، وبالتالي فقد كانت النتيجة أن انهزمت عساكر بغداد وتفرقت، وثبت الوزير قائماً ومعه مصحف وسيف، فأخذ أسيراً، وأخذ ما معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك ، وعاد العسكر الى بغداد متفرقين[٤٥] . وقد بقي ابن يونس في أسر السلطان طغرل الى أن استطاع الهرب من أذربيجان الى الموصل ثم إلى بغداد. وفي عام (١١٨٩/٥٨٥) نجد الناصر يقوم فجأة بتعيين ابن يونس في وظيفة صاحب المخزن، على الرغم من فضيحة هزيمته أمام طغرل التي أشرنا إليها قبل قليل،

ثم تم تعيينه في عام(١١٩١/٥٨٧) في وظيفة أستاذ الدار . ويرى بعض الباحثين أن إعادة الاعتبار لابن يونس من خلال إسناد بعض المناصب الحكومية إليه كان له دلالة خاصة، وذلك أن الناصر حاول أن يرضي الحنابلة من خلال الإبقاء على أحد رموزهم في وظيفة حكومية[٤٦] . وعلى أيه حال فقد تم عقد مجلس لقاضي القضاة والعلماء في عام(١١٩٤/٥٩٠)، ووجهت في ذلك المجلس عدة تهم الى ابن يونس نتيجة لتلك القيادة الفاشلة للجيش الموجه الى طغرل، وقد حمل المسؤولية في ذلك، وتقرر عزله من قبل ذلك المجلس، ثم سجن حتى وفاته عام (١١٩٧/٥٩٣)[٤٧]، لم يقف الصراع بين الخليفة الناصر والسلطان السلجوقي طغرل عند هذا الحد، بل كان كل منهما جاداً في تحقيق أهدافه ونواياه تجاه الآخر. وفي عام (١١٩٠/٥٨٦) تمكن قزل من هزيمة طغرل وأسره، ثم تم اعتقاله في بعض القلاع، وهكذا دانت المنطقة لقزل، فخطب لنفسه بالسلطنة، ولكنه ما لبث أن قتل عام (١١٩١/٥٨٧)، وكان دخل ليلة قتل الى منزله لينام، وقد تفرق أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه، ولم يعرف قاتله[٤٨] . وفي عام(١١٩٢/٥٨٨) خرج السلطان طغرل من سجنه واستعاد السلطنة، حيث تمكن من السيطرة ثانية على همذان وغيرها، بعد هزيمة صاحبها قتلغ بن البهلوان، الذي سار الى الري وتحصن بها. وعند ذلك بدأ الخليفة يبحث عن حليف جديد وقوي يساعده على التخلص من السلطان السلجوقي، فأرسل الناصر الى خوارزمشاه علاء الدين تكش يشكو من طغرل، ويطلب منه المساعدة والسير الى مناطق طغرل للسيطرة عليها، كما أرسل إليه منشوراً يقطعه بموجبه تلك البلاد التي كانت تحت نفوذ السلاجقة، فسار خوارزمشاه من

---

[٤٣] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.

[٤٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣ــ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٥٦ــ٦٦.

[٤٥] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٦٦.

[٤٦] Mason, 97.

[٤٧] Ibid, 97.

[٤٨] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١٨؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٦٦ــ٦٧.

نيسابور الى الري عام (١١٩٤/٥٩٠)، فتلقاه قتلغ ومن معه بالطاعة، وساروا معه، فالتقى العسكران بالقرب من الري، ولم تتمكن عساكر السلطان المتفرقة من الصمود، وقُتل طغرل بن أرسلان وحُمل رأسه الى بغداد ليعلق على أحد أبوابها[٤٩]. وبذلك تم القضاء على السلطنة السلجوقية، كما فتحت صفحة جديدة لصراع آخر بين بغداد والدولة الخوارزمية.

بعد انتصار خوارزمشاه على السلاجقة سار الى همذان، وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر قد سير عسكراً لنجدة خوارزمشاه، وسير له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، وكان ابن القصاب قد استقدم من شيراز سنة(١١٨٨/٥٨٤) بعد أسر الوزير عبيد الله بن يونس، على ما تقدم، وولي ديوان الإنشاء، ثم أضيف إليه منصب نيابة الوزارة. وفي عام(١١٩٤/٥٩٠) تولى منصب الوزارة[٥٠] ، وقد وصفته المصادر بأنه كان مهتماً بالعلوم والآداب، نفسه قوية، وهمته عالية، وجميع بين رياستي السيف والقلم، وأنه ذو دهاء وحسن تدبير، مع فضل وأدب وبلاغة[٥١]. وكان ابن القصاب قد تولى من قبل بعض الأعمال في بلاد خوزستان، وصار له فيها أصحاب وأصدقاء، وعرف البلاد ومن أي وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها، فعندما تولى نيابة الوزارة، أشار على الخليفة أن يرسله في جيش للاستيلاء على خوزستان، وحدث أن مات صاحبها ابن شملة، واختلف أولاده من بعده، فراسل بعضهم ابن القصاب يستنجده، فكانت فرصة مواتية له للسير إلى خوزستان حيث وصلها سنة (١١٩٥/٥٩١) وملك تلك المناطق وأرسل بني شملة إلى بغداد[٥٢].

ونعود الآن للحديث عن العلاقة بين ابن القصاب وخوارزمشاه، وكنا أشرنا إلى أن ابن القصاب كان يحمل الهدايا والخلع السلطانية من الخليفة الناصر إلى خوارزمشاه، فعندما وصل الوزير إلى مشارف همذان أرسل إليه خوارزمشاه يطلبه إليه، فأجابه الوزير بأنه (أي خوارزمشاه) هو الذي ينبغي أن يحضر ويلبس الخلعة. وترددت الرسل بينهما، فقصده خوارزمشاه لمحاربته، فتراجع الوزير، وعندها أقطع خوارزمشاه همذان إلى قتلغ بن البهلوان وعاد إلى خوارزم[٥٣]، وهكذا ظهر أن خوارزمشاه علاء الدين تكش لم يكن على استعداد لكي يبقى مجرد حليف تابع للخليفة، وفشلت محاولات ابن القصاب لإقناع تكش بالهدايا والخلع السلطانية للعدول عن رأيه، وبالتالي كان لا بد من حملة عسكرية[٥٤]. وفي عام (١١٩٥/٥٩١) هاجم الوزير ابن القصاب همذان وغيرها من المناطق، واستولى عليها، وأقام بظاهر همذان نحو ثلاثة أشهر، فأرسل تكش رسله إلى الوزير يعرض المصالحة، وكما هو متوقع فقد رفض الوزير دعوة الصلح، وخاصة بعد تلك الانتصارات التي حققها، فما كان من خوارزمشاه إلا أن أعد جيشاً ضخماً لمهاجمة قوات الوزير، ومن سوء حظ الوزير والخلافة العباسية أن المنية عاجلت ابن القصاب، حيث توفي في أوائل شعبان سنة (١١٩٦/٥٩٢)، ثم وقعت معركة بين خوارزمشاه وجيش الوزير، فإنهزم عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون شيئاً كثيراً، وملك خوارزمشاه همذان، ونبش الوزير من قبره، وقطع رأسه، وسيره إلى خوارزم ليدعي أنه قتله في المعركة[٥٥]. وهكذا حل الخوارزميون محل السلاجقة في السيطرة على تلك المناطق، وبدأ عهد جديد من الصراع بين بغداد وقوة خارجية جديدة هي هذه المرة قوة خوارزمشاه[٥٦].

يعود ابتداء ظهور الدولة الخوارزمية إلى محمد بن أنوشتكين وذلك سنة ١٠٩٧/٤٩٠. وقد كان أنوشتكين (والد محمد المذكور) مملوكاً لأحد أمراء السلاجقة وإسمه بلكباك، وقد علا أمر أنوشتكين حيث كان حسن السيرة، وكان مقدماً مرجوعاً إليه، كما أنه اهتم كثيراً بتربية إبنه محمد وتأديبه وتعليمه. وعندما تولى الأمير حبشي، أحد قادة بركياروق، ولاية خراسان وقع اختياره على محمد بن أنوشتكين فولاه

(٤٩) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٠؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٧٦.

(٥٠) الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص ٢٩؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣١.

(٥١) ابن الدبيثي، ص ٣١؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٤.

(٥٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤ـ٦٥٥.

(٥٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٠ـ٢٣١.

(٥٤) Mason, 100.

(٥٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٢؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٥.

(٥٦) Mason, 100.

خوارزم، ولقبه خوارزمشاه، وذلك سنة ١٠٩٧/٤٩٠، وعندها فإن خوارزمشاه "قصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها، وقرب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسناً ومحله علواً"[٥٧]. ولما ملك السلطان سنجر خراسان (٥١٣/ ١١١٩ــ١١٥٧/٥٥٢) أقر محمد بن أنوشتكين على خوارزم وأعمالها، فظهرت كفايته وشهامته، مما زاد في تقديره لدى سنجر.

بقيت الأمور على هذا الوفاق حتى وفاة خوارزمشاه محمد سنة ١١٢٧/٥٢١، فولي بعده ابنه أتسز، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل، وكان قاد الجيوش أيام أبيه، فقربه السلطان سنجر وعظمه واستصحبه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدماً وعلواً[٥٨]. وقد دام هذا الاتفاق بين أتسز وسنجر مدة ثماني سنوات (١١٢٦/٥٢١ ــ ٥٢٩/ ١١٣٤) سعى أتسز بعدها إلى الاستقلال التام عن السلاجقة متخذاً سبيل التمرد والعصيان وسيلة للوصول إلى هدفه[٥٩]، وقد تمكن أتسز، وبعد سلسلة من الحروب والمعارك والاضطرابات، من تأسيس دولة مستقلة عن السلاجقة، كما عمل على تثبيت أركان تلك الدولة وتوسعها، وقد رسم خلفاؤه من بعده سياسة جعلوا من أهم أهدافها تدعيم نفوذهم في خوارزم ومحاولة بسط نفوذهم على مناطق جديدة[٦٠].

وقد تعاقب على حكم الدولة الخوارزمية مجموعة من الزعماء من أشهرهم علاء الدين تكش (١١٧٣/٥٦٨ ــ ١١٩٩/٥٩٦)، الذي استطاع أن يوطد دعائم الدولة الخوارزمية وأن يجعل لها كياناً مرهوب الجانب[٦١]، وابنه علاء الدين محمد (١١٩٩/٥٩٦ــ١٢٢٠/٦١٧) الذي وصلت الدولة الخوارزمية في عهده إلى ذروة إتساعها، حيث أصبحت حدودها تمتد من العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن بحر آرال وقزوين شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً[٦٢].

وقد امتد حكم الدولة الخوارزمية حتى سنة ٦٢٨/ ١٢٣١، عندما تم اغتيال آخر خوارزمشاه، وهو جلال الدين بن علاء الدين محمد، المعروف بجلال الدين منكبرتي، حيث وقعت الدولة الخوارزمية فريسة للغزو المغولي، فكانت أولى ضحايا ذلك الغزو بقيادة جنكيز خان.

ولعل أهم صفة تميز الدولة الخوارزمية في علاقتها بالخلافة العباسية هي محاولات خوارزمشاه المتكررة للحلول محل السلاجقة كحكام لشرقي العالم الإسلامي، وذلك إثر ضعف دولة السلاجقة وانهيارها فيما بعد.

أما العلاقة التي ربطت الخليفة الناصر بالخوارزميين فتعود إلى سنة (١١٩٤/٥٩٠)، وهي السنة التي تحالف فيها الخليفة مع تكش ضد السلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان، على ما ذكرنا. وفي سنة (١١٩٨/٥٩٤) بدأ الصراع بشكل رسمي بين الخليفة وتكش، وذلك عندما أرسل الأخير رسولاً إلى الخليفة يطلب منه أن يعترف بسلطنته، وأن يضاف اسمه إلى الخطبة في بغداد. والواقع أنه وإن بدأت في هذه السنة مطالبة خوارزمشاه بهذا الاعتراف، إلا أن الإجراءات الفعلية من أجل انتزاع هذا الاعتراف تأجلت حتى عام (١٢١٧/٦١٤)، وربما كان هذا التأجيل بفضل الدور الذي لعبه الغوريون في مساندة الخليفة ضد خوارزمشاه[٦٣]، ففي عام (١١٩٨/٥٩٤)، وعلى أثر مطالبة تكش بالسلطنة، أرسل الخليفة إلى غياث الدين، ملك الغوريين، يأمره بقصد بلاد خوارزمشاه ليثنيه عن قصد العراق، وفي هذه الأثناء كان خوارزمشاه قد عاد إلى خوارزم، فراسله غياث الدين يُقبّح له فعله ويهدده بمهاجمته، فما كان من خوارزمشاه إلا أن أرسل إلى حلفائه الخطا يشكو إليهم تهديدات غياث الدين، وحذرهم بأنه إذا تمكن من أخذ بلاد خوارزمشاه فسوف يتحرك لأخذ بلاد الخطا أيضاً، فقام الخطا بعبور نهر جيحون إلى ناحية خراسان، وعاثوا في البلاد وأفسدوا، فلقيهم عسكر غياث الدين الغوري وقاتلهم، واستطاع بعد سلسلة من المواجهات الانتصار على قبائل الخطا الكافرة، في حين اضطر تكش للتراجع إلى منطقة خوارزم[٦٤]. لقد عمل هذا التحالف بين تكش والخطا لمصلحة الخليفة

---

(٥٧) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ١٨٤.

(٥٨) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٥٩) العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٢١ــ٢٢.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٦١) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٢؛ Mason, 103.

(٦٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤١ــ٢٤٢.

الناصر، وأعطى بوادر الفشل للخوارزمية في محاولاتهم لإضفاء الشرعية على حكمهم وجعل السلطنة باسمهم، فإن تحالف الخوارزميين مع الخطا، الذين لم يكونوا يدينون بالإسلام، ترك انطباعاً سلبياً عن الخوارزميين في أذهان عامة الناس، الذي نظروا إلى إسلامهم بشيء من الريبة، وهو ما وجده تكش مسألة لا يمكن مواجهتها، حيث لمس ذلك أثناء إقامته في بخارى بعد انسحابه[٦٥].

وفي سنة (١١٩٩/٥٩٥) تحسنت العلاقات بين الخليفة وخوارزمشاه، وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزمشاه ولولده قطب الدين محمد، وتقليد ما بيده من البلاد، فلبس الخلعة. وكما يذكر ابن الأثير فإن خوارزمشاه اشتغل في تلك السنة بقتال الملاحدة (حشيشية آلموت) فافتتح بعض قلاعهم وحاصر آلموت نفسها، وربما كانت هذه العداوة المشتركة لحشيشية آلموت، في هذه الأثناء على الأقل، هي التي قربت بين الطرفين، وأدت إلى هذا التحالف، وساعدت الناصر على كسب تأييد خوارزمشاه من جديد. وفي السنة التالية أي في (١٢٠٠/٥٩٦) مات خوارزمشاه علاء الدين تكش، فولي الملك من بعده ابنه قطب الدين محمد ولقب بلقب أبيه، علاء الدين، وقد استأنف خوارزمشاه علاء الدين محمد حروبه ضد الغوريين، وخاصة في مرو ونيسابور، وطرد الغوريين من منطقة خراسان. وفي سنة (١٢٠٣/٥٩٩) مات غياث الدين فخلفه أخوه شهاب الدين، واستمرت الحروب بينه وبين خوارزمشاه، إلا أنه قتل بعد بضع سنوات، عام (١٢٠٦/٦٠٢)، على يد جماعة من بني كوكر، وقيل على يد جماعة من الاسماعيلية، حيث كان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم[٦٦]، فانتهى هذا التحالف الهام بين الخلفة الناصر والغوريين، ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الخليفة الناصر كان قد أرسل لزعماء الغورية خلعاً سطانية، كما ذكرت اسماؤهم في الخطبة، إضافة إلى أن شهاب الدين الغوري، الذي خلف أخاه كملك لغزنة والهند، كان أحد الأعيان الذين أنعم عليهم الناصر بلباس الفتوة[٦٧].

وتعتبر سنة (١٢١٧/٦١٤) سنة فاصلة في تاريخ العلاقة بين الخليفة العباسي الناصر والدولة الخوارزمية، ففيها قرر خوارزمشاه علاء الدين محمد أن يخلع الناصر من الخلافة، وأن يحكم سيطرته على بغداد. وقد استطاع خلال فترة حكمه أن يستولي على مناطق واسعة، حيث عظم أمره، وعلا شأنه، وأطاعه القريب والبعيد[٦٨]. كما أنه لم ينس آماله وآمال أبيه من قبله بأن يخطب له ببغداد، وأن يلقب بالسلطان، فأمر بإلغاء اسم الخليفة من الخطبة في خوارزم، كما أنه أمر بأن يحل اسمه محل اسم الخليفة في كل المناطق التي تقع تحت سيطرته، والممتدة من تركستان إلى حدود العراق. وبذلك اعتبر علاء الدين نفسه الوارث الحقيقي لسلاطين السلاجقة، فقرر التوجه إلى بغداد، حيث حشد جيشاً ضخماً توجه به نحو العراق، قيل أنه قارب الأربعمائة ألف مقاتل. أما الخليفة فقد استعد لملاقاة خوارزمشاه وأنفق الأموال وفرق السلاح، وتمت المراسلات بين الطرفين، إذ أرسل خوارزمشاه إلى الخيفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة، وأن يخطب له في بغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك. وأرسل الخليفة من جهته رسولاً إلى خوارزمشاه، وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ليذكره بفضائل بني العباس وشرفهم، وبالحديث الذي ينهى عن أذاهم، ولكن استجابة خوارزمشاه كانت سلبية، فقال للسهروردي: أما ما ذكرت من فضل الخليفة فإنه ليس كذلك، ولكني إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفة، وأما ما ذكرت من النهي عن أذاهم فإني لم أوذ منهم أحداً، ولكن الخليفة في سجونه منهم طائفة كبيرة، فهو الذي آذى بني العباس؛ ثم تركه ولم يرد عليه جواباً بعد ذلك، وانصرف السهروردي راجعاً[٦٩]. وقد لعبت الظروف والمصادفات دوراً هاماً أثناء ذلك الهجوم، حيث تعرض جيش خوارزمشاه في طريقه من همذان إلى بغداد لعاصفة ثلجية قوية استمرت ثلاثة أيام، خسر خلالها خوارزمشاه أعداداً كبيرة من جيشه، فعاد أدراجه بمن نجا منهم إلى خوارزم، وفي نيته التحضير لهجوم جديد، إلا أن

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٢؛ Mason, 103.

(٦٦) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٧٢.

(٦٧) Mason, 104.

(٦٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٣.

(٦٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٧٦؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٨٧.

الأحوال السياسية كانت تؤذن بملامح تغير هائل، حيث كان المغول يهيئون أنفسهم للظهور كعامل جديد يدخل الصراع على السلطة في العالم الإسلامي.

لقد عرف الخليفة الناصر لدين الله العباسي باشتراكه بمجموعة من الترتيبات السياسية من خلال عدد من التحالفات التي استغلها لمصلحته[٧٠]، وقد أعطينا قبل قليل نماذج لهذه التحالفات، خاصة تلك التي ربطت بينه وبين الخوارزمية لمواجهة السلاجقة، ثم تحالفه فيما بعد مع الغوريين ضد الخوارزمية. أما أكثر أحلاف الناصر إثارة للدهشة والاستغراب فهي تحالفه مع جلال الدين حسن، حاكم قلعة آلموت الاسماعيلي، ومما يزيد الأمر غرابة أن اثنين من خلفاء بني العباس، وهما المسترشد والراشد، كانا قد اغتيلا على يد حشيشية آلموت.

وفي عام (٦٠٧/١٢١٠) مات محمد الثاني حاكم آلموت نيخلفه ولده جلال الدين حسن. وكان جلال الدين حسن قد أبدى أثناء حياة أبيه عدم رضاه عن عقائد الاسماعيلية، ورغبته بالانضمام إلى العالم السنّي المسلم. وكما يذكر الجويني فإن جلال الدين حسن كان قد عين أثناء طفولته ولياً لعهد والده، وعندما كبر أبدى رفض عقيدة والده، وخاصة طقوس الالحاد والإباحة[٧١]، ونشأ بينه وبين والده نوع من العداوة، حيث كان كل منهما حذراً من الآخر. ونتيجة لذلك، وبدافع من توجهاته السنّية، قام جلال الدين حسن بالكتابة سراً إلى خليفة بغداد وسلاطين وملوك البلاد الأخرى يخبرهم أنه كان مخالفاً لأبيه، وأنه عندما يحين دوره للحكم سيقوم بإزالة الإلحاد وإعادة قاعدة الإسلام، وعندما وصل إلى العرش أظهر إسلامه، ومنع أتباعه بشدة من الاستمرار في الإلحاد، وحثهم على الالتزام بالشريعة الإسلامية، وأرسل سنة (٦٠٨/١٢١١) رسلاً إلى خليفة بغداد وغيره يعلمهم بذلك، وقد يكون تمهيده بمراسلة الخلافة أثناء حياة أبيه عاملاً لتصديق كلمته، خاصة في بغداد، حيث صدر منشور يؤكد رجعة حسن إلى الإسلام، ولكي يؤكد جلال الدين حسن موقفه هذا قام بإحراق مؤلفات أجداده، ولعنهم علانية، وأعلن براءته منهم. وفي سنة (٦٠٩/١٢١٢) أرسل جلال الدين حسن والدته السنّية إلى الحج؛ فأكرمت ببغداد إكراماً عظيماً، وكذلك بطريق مكة[٧٢].

وهكذا أصبح اسماعيلية آلموت، وحتى وفاة جلال الدين سنة (٦١٨/١٢٢١)، في خدمة الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فعلى سبيل المثال نجد أن الناصر قد استعان بجلال الدين حسن ليقف معه في صراعه ضد منكلي، أحد أمراء البهلوانية ففي عام (٦٠٨/١٢١١) قدم ايدغمش من أمراء البهلوانية وصاحب همذان وأصفهان والري وما بينهما من البلاد، إلى بغداد هارباً بعد أن خرج عليه مملوك اسمه منكلي، ونازعه في البلاد، وكثر أتباعه، وأطاعه المماليك البلهوانية، فاستولى عليها، وهرب منه شمس الدين أيدغمش، فأنعم عليه الخليفة الناصر وشرفه بالخِلَع، وأعطاه ما يحتاج إليه، وسيره إلى همذان سنة (٦١٠/١٢١٣). إلا أن منكلي تمكن من قتله؛ فأرسل الديوان الخليفي إلى منكلي ينكر عليه ذلك، ثم بدأ الخليفة بإقامة تحالف يستطيع بواسطته القضاء على منكلي. من جهة ثانية، فقد استغل الخليفة الجفاء الذي حصل بين منكلي والأمير أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان، والذي كان صاحباً لمنكلي، فأرسل الخليفة إلى أوزبك يحرضه على منكلي ويعده النصرة. كما استغل الخليفة صداقته الجديدة مع جلال الدين حسن الإسماعيلي صاحب قلاع الإسماعيلية، فأرس إليه بمعاضدة أوزبك يحثه على قتال منكلي، واتفق الثلاثة، الخليفة وأوزبك وجلال الدين، على تقسيم بلاد منكلي فيما بينهم في حال انتصارهم. وبعد هذا الاتفاق، جهز الخليفة جيشاً كبيراً، جعل قيادته لمملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع، كما أرسل إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك، وهو إذ ذاك صاحب إربل وشهرزور وأعمالها، وجعله مقدم العساكر جميعها. وقد هُزم منكلي، وقتل فيما بعد، وتم اقتسام البلاد[٧٣].

(٧٠) الجومرد ونزار قادر، دور الخلافة العباسية، ص ٤٠٥.

(٧١) لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص ٨٧، ٩٣.

(٧٢) لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص ٩٣ـ٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢١١.

(٧٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٥ـ٣٠٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧ـ٦٥٨.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الذي استفاده جلال الدين حسن والإسماعيلية من هذا التحالف مع خليفة بغداد السنّي؟ يبدو أن جلال الدين كان أكثر تأثراً بوالدته السنّية الورعة منه بأبيه الاسماعيلي، وربما كان قد شعر بعزلة الحركة الاسماعيلية في تلك القلاع التي كانت تسيطر عليها، وبالتالي فقد أتيحت له الفرصة للخروج من قلعة آلموت والاختلاط بالمسلمين بحرية أكبر، وكانت تلك فرصة له كي يلتمس من أمراء جيلان أيدي بعض فتياتهم للزواج. فكان الأمراء مترددين بين القبول والرفض، فوجدوا مخرجاً في جعل موافقتهم موقوفة على سماح الخليفة. وعلى الفور أُرسل رسول من آلموت إلى بغداد، حيث استصدر من الخليفة كتاباً يجيز للأمراء تزويج بناتهم من جلال الدين، وذلك تبعاً لأحكام الإسلام. فقام جلال الدين بالزواج من أربع أميرات جيلانيات، كان لواحدة منهن شرف حمل الإمام الاسماعيلي التالي[٧٤].

ويفسر البعض عودة جلال الدين حسن إلى الشريعة الإسلامية، واحترامه للخلافة السنية في بغداد، بأن ذلك كان تعبيراً حقيقياً عن تحول ديني أصيل، ومحاربة صحيحة لعقائد أسلافه. وهذا ما يفسر، برأيهم، اقتناع الخليفة بذلك، كما تبين في تأييد زواج جلال الدين من الأميرات الجيلانيات، وإظهار الاحترام والتقدير لأمه في طريقها إلى الحج، حيث يبدو من ذلك اهتمام يدل على أبعد من حاجة الخليفة إلى التحالف[٧٥]، إلا أن آخرين يرون أن الأمر لم يكن أكثر من نفاق وسياسة مرسومة بعمق، من أجل إعادة تأسيس النظام الاسماعيلي، الذي كان عرضة للعنة رجال الدين، بسبب الممارسات المخالفة للعقيدة، ومن أجل أن يحصل لنفسه على لقب أمير بدلاً من لقب السيد الأعظم[٧٦].

وعلى أية حال، فقد انتهت علاقة الناصر بحكام آلموت بعد موت جلال الدين حسن عام (٦١٨/١٢٢١)، حيث لا نعرف شيئاً عن أي تحالف للناصر مع الاسماعيلية بعد ذلك.

وإذا كان تحالف الناصر لدين الله مع اسماعيلية آلموت قد أثار الدهشة والاستغراب لدى العديد من المؤرخين والدارسين، فهناك تحالف آخر، إن صحّ، كان قد أثار موجة تعدت الدهشة والاستغراب إلى السخط والنقمة، وأقصد بذلك التهمة التي وجهت إلى الناصر بأنه أطمع التتار في البلاد، وراسلهم بسبب العداوة التي كانت بينه وبين خوارزمشاه[٧٧]. والواقع أن المرء يستطيع أن ينفي هذه التهمة عن الناصر، ليس لأن مثل هذا العمل بعيد عن أخلاق الخليفة، الذي عرف عنه اشتراكه في ترتيبات أخرى كثيرة لمصلحته، بل لأن مثل هذا التصرف لن يخدم أهداف الخليفة، وإنما على العكس قد يؤدي إلى نتائج سلبية عليه وعلى خلافته. إن ابن الأثير نفسه، الذي عُرف بتحامله على الخليفة، يورد سبباً آخر لتحركات جنكيزخان لا علاقة له بالخليفة، وإنما يتعلق بخوارزمشاه نفسه. ففي سنة (٦١٧/ ١٢٢٠) أرسل جنكيزخان مجموعة من التجار ومعهم الأموال إلى بلاد ما وراء النهر في سمرقند وبخارى ليشتروا له ثياباً للكسوة، فوصل التجار إلى مدينة أوترار، وهي آخر ولاية خوارزمشاه، وكان له نائب هناك. فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزمشاه يأمر بقتلهم وبأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذها إليه؛ فقتلهم وسير ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم. ولما علم جنكيزخان بذلك بعث رسولاً ومعه جماعة إلى خوارزمشاه يتهدده لقتل أصحابه التجار وأخذ أموالهم، ويؤذنه بحرب لا قبل له بها، فلما سمع خوارزمشاه الرسالة أمر بقتل رسول جنكيزخان فقُتل، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول[٧٨]. وقد تبع ذلك هجوم شامل قام به جنكيزخان على بخارى وسمرقند وهمذان والري، حيث هُزم خوارزمشاه علاء الدين محمد وفر هارباً إلى قلعة في بحر قزوين حيث لقي حتفه[٧٩].

(٧٤) لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص ٩٥.

(٧٥) المرجع نفسه، ص ٩٦ مشيراً في ذلك إلى رأي الجويني وغيره من المؤرخين الأيرانيين السنّة.

(٧٦) المرجع نفسه، ص ٩٧ حيث يشير إلى رأي جوزيف فون هامر.

(٧٧) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٦٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٠٧.

(٧٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٣٠ـ٣٣١.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٢ـ٣٣٤.

ويرفض بارتولد الرأي القائل بدعوة الناصر للمغول، إذ يرى أن التجار، الذين أشرنا إليهم، كانوا مبعوثين من قبل جنكيزخان إلى خوارزمشاه، ويعتقد بارتولد أنه كانت للتجار بشكل عام علاقات سياسية وثيقة بشؤون المناطق التي ينتمون إليها. من جهة ثانية، فإنه يرى أن عدداً من التجار المسلمين كانوا بصحبة جنكيزخان في حملته ضد أراضي المسلمين، وبالتالي فإن خوارزمشاه كان يعرف تماماً أن ما قام به كان تصرفاً سياسياً موجهاً بشكل مباشر للمغول أنفسهم، علاوة على ذلك فإن إقدام خوارزمشاه على قتل مبعوث جنكيزخان كان عملاً استفزازياً متعمداً. وهكذا فإن الهجوم الشامل الذي نتج عن ذلك كان مسؤولية خوارزمشاه المباشرة وليس مسؤولية الناصر[٨٠]، ومع ذلك، فإن الكثير من المؤرخين المسلمين، وقد أشرنا إلى آراء بعضهم، قد تحدثوا بكآبة وحزن عن التدمير الهائل الذي لحق بالعالم الإسلامي على يد المغول، يضاف إلى ذلك الصورة الغريبة التي استقرت في أذهانهم عن الناصر، ولذلك فإن شخصية الناصر وتصرفاته كانت المنطلق لإلقاء اللوم عليه في أنه هيأ لسقوط بغداد من خلال دعوته المزعومة للمغول[٨١]، ثم إننا يمكن أن نضيف تفسيراً آخر لما حدث للعالم الإسلامي، وهو أن ما حدث كان أقوى من أي شخص مهما كانت طاقاته، فالتشرذم الذي مر بالمنطقة، والصراع المستمر، والطموحات الشخصية، والتحالفات المتغيرة، والضعف الداخلي الهائل، كانت كلها عوامل هامة جداً أدت إلى سقوط خوارزمشاه وقلعة آلموت والخلافة العباسية فيما بعد[٨٢]، إلا أن الخطر الخارجي الهائل كان أكبر بكثير من أن يتخيله المرء، على الرغم من الأسباب السابقة كلها.

وهكذا تاتي أحلاف الناصر العظيمة الى نهايتها، بكل ما حملته من ايجابيات وسلبيات، وما جرته عليه من مدح وذم. وفي نهاية الحديث عن المحاولات السياسية الى قام بها الناصر، خدمة لأهدافه في إعادة الهيبة للخلافة وتأكيد سلطته وسيطرته على مقاليد الأمور، لا بد من الاشارة الى جهاز التجسس القوي الذي بناه الخليفة، ليقوم بإيصال أدق المعلومات إليه، لإشاعة جو بين الناس يتضح فيه حضوره الدائم واطلاعه على حقائق الأمور ودقائقها . وتورد المصادر الكثير من الأمثلة، وإن بدت المبالغة في بعض منها، عن قصص من هذا القبيل .

فهذا ابن الطقطقا يمتدح الناصر ويصفه بصفات جيدة كالشجاعة والمعرفة والذكاء والفطنة، ويذكر أنه كان يحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه، وكان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما يدور بين الناس، وكان كل أحد من أرباب المتاصب والرعايا يخافه ويحاذره، كأنه يطلع عليه في داره. وكثرت جواسيسه وأصحاب أخباره عبد السلاطين وفي أطراف البلاد، وله في مثل هذا قصص غريبة[٨٣]. ويروي ابن كثير ما كان يذكر عن الناصر من أشياء غريبة، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه: فعلتم في مكان كذا وكذا وفعلتم في الموضع الفلاني كذا، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف، أو أن جنياً يأتيه بذلك[٨٤] . وكان للناصر أصحاب أخبار في مختلف المناطق، يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها، وكان ذا سطوة شديدة، فكان أهل العراق يخاف أحدهم ان يتحدث مع زوجته في منزله بما يظن أن الخليفة إذا بلغه عاقب عليه[٨٥]. وذكر السيوطي أن الناصر كان ذا فكرة صائبة ومكر ودهاء، وأنه كان له أصحاب أخبار في سائر الأطراف يطالعونه بجزئيات الأمور، حتى ذكر أن رجلاً ببغداد عمل دعوة وغسل يده قبل أضيافه، فطالع صاحب الخبر الناصر بذلك، فكتب الناصر في جواب ذلك: سواء أدب من صاحب الدار وفضول من كاتب المطالعة[٨٦]. ولما دخل رسول صاحب مازندران إلى بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل، فصار يبالغ في التكتم، والورقة تأتيه بذلك، فاختلى ليلة بإمراة دخلت من باب السر، فصحبته الورقة بذلك وفيها "كان عليكم دُواج[٨٧] فيه صورة الفيلة"، فتحير وخرج من بغداد وهو لا

(٨٠) فاسيلي فلاديميرو فتش بارتولد، تركستان، ص ٥٦٨ــ٥٧١.
(٨١) Mason, 111.
(٨٢) Ibid, 111-112.

(٨٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.
(٨٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٠٧.
(٨٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٣.
(٨٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧١٦ــ٧١٨.
(٨٧) الدُّواج: معطف غليظ.

يشك ان الخليفة يعلم الغيب. وأتى رسول من خوارزمشاه برسالة مخفية، وكتاب مختوم، فقيل له: ارجع فقد عرفنا ما جئت به، فرجع وهو يظن أنهم يعلمون الغيب[٨٨].

إن الأمثلة السابقة وأشباهها تؤكد ان الناصر عمل على تأسيس جهاز تجسس دقيق، استخدمه لتحقيق هدفين رئيسيين: تأكيد هيمنته على رعاياه واطلاعه على الأحوال الداخلية من جهة، وإثبات متابعته لما يجري في الأطراف عند حلفائه من جهة ثانية. إن مثل هذه الطرائف التي كان يوحى بها إلى الناس بأن ما يجري بين المرء وزوجته، أو ما يحصل للرجل في خلوته، قد يعلم به الخليفة، كان يقصد بها أن تبقى صورة الخليفة وشخصيته وهيبته حاضرة بشكل دائم بين هؤلاء الناس، وما يتبع ذلك من احترام وخوف ومهادنة.

أما النمط الثاني من محاولات الناصر فهو المحاولات السياسية ــ الاجتماعية ــ الدينية، ويندرج تحت هذا العنوان موضوعان أساسيان أولهما محوره العلاقة بين الناصر ومجموعة العلماء من رجال الدين في محاولة لاستغلال نفوذهم الشعبي لمصلحته، وثانيهما إحياؤه لمنظمة الفتوة وتطويرها وتنظيمها لخدمة أهدافه.

كان للعلماء من رجال الدين تأثير كبير على الطبقات الاجتماعية المختلفة، وخاصة من خلال تأثيرهم على طلبتهم وأتباعهم، ولذلك فقد شكلوا فئة قيادية هامة في المجتمع الإسلامي بشكل عام، وبالتالي فإن رأي هؤلاء العلماء ومواقفهم سيكون لها أثر كبير على توجهات الناس ومواقفهم تجاه أي مسألة من المسائل بما في ذلك نظام الحكم، وللتدليل على ذلك، من التاريخ العباسي، لا بأس من الإشارة إلى فترة ازدهار الاعتزال وقوته في عهد الخليفة العباسي المأمون، وما تبع ذلك من تراجع وتدهور ثم سقوط في عهد المتوكل. إن السبب الرئيسي لذلك التراجع كان المواجهة المباشرة بين رجالات المعتزلة وعلماء أهل السنة والجماعة وممثلهم أحمد بن حنبل. لقد سقط الاعتزال والمعتزلة لأنهم تعرضوا لرموز الدين الإسلامي، كما فهمه عامة الناس، بالسجن والتعذيب، وهذا مثال واضح جداً لأهمية المواقف السياسية والفكرية لرجال الدين، وما لذلك من تأثير على عامة الناس.

من هنا فقد كان الخليفة الناصر على معرفة تامة بأهمية هذا الدور للعلماء؛ فقربهم واهتم بهم وأظهر احترامه لهم وأخذه بآرائهم. لقد شعر الناصر، ذو الأهداف السياسية الكبيرة، بضرورة التقرب من الحنابلة؛ لأنه أدرك مدى قوة المذهب الحنبلي في البلاد، فأراد استغلال ذلك لتقوية نفسه. لقد حقق الحنابلة شهرة كبيرة من خلال تصديهم للمعتزلة، وللأشعرية من بعدها، وأصبحوا قوة فاعلة في المجتمع، مما حدا بالناصر للعمل على استغلال هذه القوة بذكاء.

عندما تحدثنا عن الوزارة في عهد الناصر ذكرنا وزيره الحنبلي عبيد الله بن يونس، ولعل أهم المؤهلات التي كانت متوفرة لدى ابن يونس هو أنه كان من فقهاء الحنابلة، درس الحديث على أبي بكر الزاغوني، وأصول الفقه الحنبلي على أبي حكيم النهرواني وصدقة بن الحسين، ويذكر له ابن رجب مجموعة أخرى كبيرة من الأساتذة الذين تلقى العلم عنهم، ومن الطلبة الذين تلقوا علومهم عن ابن يونس، كما يشيد بتنوع معارفه ومؤلفاته[٨٩].

ومن شيوخ الحنابلة الذين كان للناصر بهم صلة عبد المغيث بن زهير الحربي (ت ٥٨٣/١١٨٧)، الذي كان من صلحاء الحنابلة وكان يزار، وقد صنف كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالغرائب والعجائب، حيث كان يرى أن يتوقف الناس عن عادة لعن يزيد، ورد عليه أبو الفرج بن الجوزي مبرراً ضرورة استمرار اللعن. ويبدو أن هذا الخلاف أكسب عبد المغيث شهرة كبيرة ولفت انتباه الخليفة الناصر، الذي كان يهتم ويتابع الخلافات والمناظرات التي تجري بين العلماء، وخاصة فيما يتعلق بمسائل الخلافة. ويقال ان الخليفة أتى عبد المغيث زائراً مستخفياً، ربما لدى قبر أحمد بن حنبل ببغداد، فالتقى الخليفة بعبد المغيث، لقد أتى الناصر إلى قبر أحمد بن حنبل عندما كان في جولة تنكرية في المدينة كعادته، وكان عبد المغيث جاهلاً أو متجاهلاً للشخص الذي يتكلم معه، فسأله الخليفة عن يزيد: أيُلعن أم لا؟ فقال: لا أسوغ لعنه؛ لأني لو فتحت هذا الباب

---

[٨٨] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧١٣ــ٧١٤.

[٨٩] ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٩٢.

لأفضى الناس إلى لعن خليفتنا. فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكرة كثيرة، منها كذا وكذا، ثم شرع يعدد على الخليفة أفعاله القبيحة، وما يقع منه من المنكر لينزجر عنها، فتركه الخليفة وخرج من عنده وقد أثر كلامه فيه، وانتفع منه(٩٠).

إن طبيعة الأشخاص الذين اعتمد عليهم الناصر كمستشارين أو مبعوثين كانوا من العلماء المحترمين والزعماء الدينيين، وهذا يعكس مدى أهمية هؤلاء لدعم الخلافة، ومدى عدم ثقته بالمسؤولين الحكوميين الذين ترقت بهم الحال ليصلوا إلى كبرى الوظائف الحكومية في الديوان أو إدارة القصر(٩١).

فشهاب الدين السهروردي (ت ٦٣٢/١٢٣٤)، وهو فقيه شافعي متصوف، كان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ(٩٢). وقد بنى له الناصر رباطاً بالمرزبانية على نهر عيسى، وبنى إلى جانبه داراً واسعة وحماماً وبستاناً يسكنها بأهله، وقد أنفذه الخليفة رسولاً إلى عدة جهات، وكان الملوك الذين يرد عليهم يبالغون في إكرامه وتعظيمه واحترامه، اعتقاداً فيه وتبركاً(٩٣). ففي سنة (٦٠٤/١٢٠٧) بعث العادل استاداره الأمير الدكز العادلي وقاضي العسكر إلى الخليفة في طلب التشريف والتقليد بولاية مصر والشام، فلما وصلا إلى بغداد أكرمهما الخليفة الناصر وأرسل إليهما وأجابهما، ثم سير الشيخ شهاب الدين السهروردي ومعه التشريف والتقليد، فعندما قارب الشيخ حلب خرج الملك الظاهر بعسكره إلى لقائه، وأكرم نزله، وأمر بكرسي فنصب له، وجلس عليه للوعظ، وجلس الظاهر ومعه الأعيان، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب ودمعت العيون، وأخبر الشيخ في وعظه بأن الخليفة أطلق في بغداد من الضرائب والمكوس مبالغ كثيرة(٩٤). وفي سنة (٦١٢/١٢١٥)، وصل إلى حلب السهروردي رسولاً من الخليفة الناصر إلى الملك الظاهر، ومعه تشريف جليل، وأسمع عن الخليفة كتاب "روح العارفين" المشتمل على الأحاديث النبوية. وجلس الملك الظاهر وأكابر دولته بين يدي الشيخ شهاب الدين، وكان كلما جرى ذكر الخليفة قام الملك الظاهر على رجليه.

وبعد سماع الأحاديث التي هي تخريج الخليفة، نُصب لشهاب الدين كرسي الوعظ، وأذن للعامة في الدخول لسماع وعظه(٩٥). وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الناصر اشتغل برواية الحديث، واستناب نواباً في الإجازة عنه والتسميع، وأجرى عليهم جرايات، وكتب للملوك والعلماء إجازات، وجمع كتاباً من سبعين حديثاً. ومن الأعيان الذين أجاز لهم الناصر فحدثوا عنه ابن سكينة، وابن الأخضر، وابن النجار، وابن الدامغاني، وآخرون(٩٦).

ومن الفقهاء الذين اعتمد عليهم الناصر المبارك البغدادي، وكان وكيل الخليفة بباب طراد(٩٧)، وعلي بن رشيد الحربوي، الذي توكل للخليفة الناصر، ورفع قدره ومنزلته(٩٨)، ومنهم محمد بن علي البغدادي الفقيه الحنبلي وكان مشرفاً على وكلاء الناصر، وكان فقيهاً فاضلاً خيراً ديّناً ثقة خبيراً بالمذاهب(٩٩). أما عبد الوهاب بن عبد القادر البغدادي فقد كان فقيهاً زاهداً واعظاً، تولى المظالم للناصر سنة (٥٨٣/١١٨٧)، وكان يوصل إليه حوائج الناس(١٠٠).

واهتم الناصر بجمع الكتب وتوفيرها في المدرسة النظامية ببغداد، ففي عام (٥٨٩/١١٩٣) بنى دار الكتب بالمدرسة النظامية، ونقل إليها عشرة آلاف مجلد، وفي السنة نفسها فُرغ من عمارة الرباط الذي أمر الخليفة بإنشائه بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب، ورتب فيه عشرة من الصوفية الأخيار أصحاب المجاهدات، ورتب فيه طعاماً كل يوم خارجاً عن راتب الصوفية(١٠١).

(٩٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٢٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩.

(٩١) Mason, 92.

(٩٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٤٦.

(٩٣) ابن القوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٢.

(٩٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص ١٦٧.

(٩٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٣٢.

(٩٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧١٧ــ٧١٨؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

(٩٧) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٥١.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ــ٤٨.

(٩٩) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٠٣.

(١٠٠) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٨٨ــ٣٨٩.

(١٠١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٢٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص ٤٢١ــ٤٢٢.

أما الفرع الثاني، والأكثر أهمية، في محاولات الناصر السياسية ــ الاجتماعية ــ الدينية لتدعيم سلطته في الخلافة فيتميز بإحيائه لمنظمة الفتوة، وإبرازها بشكل جديد، وإعطائها أهمية كبيرة من خلال نظام دقيق من القيود والتعليمات والشكليات.

في عام (٥٧٨/١١٨٢) أحضر الناصر لدين الله الشيخ عبد الجبار بن يوسف بن صالح وسأله أن يلبس سراويل الفتوة، فقام عبد الجبار وألبس الخليفة سراويل الفتوة، ثم شرب الخليفة لعبد الجبار ماء الفتوة، وكان عبد الجبار هذا صاحب الفتوة في عصره وله أتباع كثيرون، ثم تفتى إلى الناصر خلق كثير من الملوك والأكابر[١٠٢]. وبذا يكون الخليفة الناصر قد بدأ عهداً جديداً في سياسته وذلك بإيجاد حزب جديد ينتمي إليه عدد كبير من الناس على مختلف طبقاتهم. ورافق هذه المرحلة الجديدة أيضاً ظهور عدد من المؤلفات التي تبحث في أدبيات هذا التنظيم، وتدون قوانين الفتوة وتفاصيلها؛ كان ذلك تأكيداً لأهمية هذه المؤسسة وخدمة للخليفة المؤسس[١٠٣]. ولكن ما هي الفتوة برأي هؤلاء الموالين للخليفة؟ وما الباعث لتأليف مثل هذه المصنفات؟ وما هي الفائدة التي ستعود على الخليفة من وراء ذلك؟

لقد حاول المؤلفون إضفاء الصبغة الدينية على الفتوة من خلال البحث عن أصل ديني للمصطلح نفسه، ومن الآيات القرآنية الكريمة التي استشهدوا بها قوله تعالى: **انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** [١٠٤]. ومن الأحاديث التي أوردها في هذا المجال ما يروى عن النبي عليه السلام أنه قال: "أفتاكم علي، فقال علي: يا رسول الله وما الفتوة؟ فقال: هي شرف يتشرف به أهل النجدة والسماح، وأنت يا علي فتى وابن فتى وأخو فتى. فقال علي: يا رسول الله من أبي ومن أخي من الفتيان؟ فقال: أبوك ابراهيم خليل الرحمن، وأخوك أنا، وفتوتي من فتوة أبيك، وفتوتك مني[١٠٥]. ومع ذلك فإن محاولة إضفاء الأصل أو الطابع الديني على هذا الموضوع تواجه شيئاً من الاعتراض؛ حيث لا نرى الآيات الكريمة التي ترد فيها لفظة "فتى" تشير إلى معنى الفتوة بالضرورة. أما بالنسبة للأحاديث في هذا المجال فيبدو أنها موضوعة؛ حيث يصرح ابن تيمية بأنه لا يصح في هذا الباب شيء. ويضيف قائلاً: فإذا ما ذكر ابن عباس لباس الفتوة السراويل وغيره وإسقاء الملح والماء فهذا باطل لا أصل له، ولم يفعل هذا رسول الله ولا أحد من أصحابه، ولا علي بن أبي طالب ولا غيره، وأما الإسناد الذي يذكرونه عن طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى علي بن أبي طالب فهو إسناد لا تقوم به حجة وفيه من لا يُعرف[١٠٦].

وقد حاول ابن المعمار أن يؤكد هذا الأصل الديني للفتوة بتعريفه لها بأنها خصلة من خصال الدين، وأنه لا خلاف بين العلماء في أن الفتوة مرغوب فيها وأن لها أصلاً في الشريعة، وأن أصل الفتوة يعود إلى ابراهيم الخليل، وأنها ما زالت تتصل منه إلى الأنبياء والصديقين إلى أن وصلت إلى الرسول محمد عليه السلام، ومنه إلى علي بن أبي طالب. وهكذا بقيت تتسلسل إلى أن وصلت إلى الخليفة الناصر عن طريق عبد الجبار الآنف ذكره والذي أخبر الخليفة أنه لبسها من شيخ إلى شيخ وبالعنعنة إلى علي بن أبي طالب[١٠٧].

أما عن أهداف التأليف في الفتوة، فإن ابن المعمار يشير في مقدمة "كتاب الفتوة" إلى أن الباعث على إصدار ذلك الكتاب هو ما رآه من اهتمام عامة الناس بالفتوة، وخاصة بعد أن قام الناصر لدين الله بإحياء سننها وجمع ما تشتت من نظامها وقوانينها، ثم ما كان من اقتداء زعماء البلاد به، حيث رأوا أن موافقته غنم، ومخالفته غرم، وأن السعادة في لزوم طاعته، والتمسك بحبل فتوته هو التمسك بالعروة الوثقى. ثم يشير المؤلف نفسه إلى أنه دعاه باعث محبة الخليفة، واقتضاه شرف خدمته، أن يضع لخدمته هذا الكتاب عن الفتوة[١٠٨].

---

(١٠٢) ابن المعمار البغدادي الحنبلي، كتاب الفتوة، ص ٥٢ــ٥٣ (مقدمة المحقق).

(١٠٣) من هذه المصنفات كتاب الفتوة لإبن المعمار وكتاب الفتوى أو تحفة الوصايا لأحمد بن إلياس النقاش، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١٠٤) سورة الكهف، الآية ١٣.

(١٠٥) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ١٣٤ــ١٣٥.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ١٠٥ــ١٠٧.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٣٩ــ١٤٧.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ١٢٣ــ١٢٦.

لقد سعى الناصر من خلال نظام الفتوة الجديد إلى أن يطرح فكرة جديدة، أو عاملاً جديداً، قد يؤدي إلى توحيد الأمة فكرياً وسياسياً تحت قيادته. ويمكن أن ننظر إلى الفتوة باعتبارها حزب الدولة الجديد، الذي ينضوي تحت لوائه وينتسب إليه كل الزعماء والقادة السياسيين والعسكريين والدينيين. فالخليفة الناصر اختار لنفسه دوراً جديداً يتمثل في زعامة هذا الحزب والإشراف عليه، وعندها طفق الناس على مختلف طبقاتهم مسرعين إلى التشرف بالانتماء إليه، "وسلكوا إلى تشريفه فجاجاً، ودخلوا في حزبه أفواجاً ..."[١٠٩]. ويبدو وكأن الناصر رأى في الفتوة جماعة إسلامية مصغرة تعبر عن الأمة الإسلامية الكبرى[١١٠]، وقد نجحت هذه السياسة في اجتذاب عدد لا بأس به من الزعماء وحكام الأقاليم لكي ينتسبوا إلى فتوة الناصر، حيث اختار هؤلاء الزعماء أن يخلع عليهم الناصر لباس الفتوة هو نفسه أو عن طريق مبعوثيه الذين أرسلهم للقيام بهذه المهمة نيابة عنه. وهكذا فقد لبس الناصر لباس الفتوة وألبسه، وتفتّى له خلق كثيرون من شرق الأرض وغربها[١١١].

ففي سنة (١٢٠٢/٥٩٩) أرسل الخليفة الناصر الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل (أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق) وبنيه، الملك المعظم والملك الكامل والملك الأشرف[١١٢]، وفي سنة (١٢١٠/٦٠٧) وردت رسل الخليفة إلى ملوك الأطراف في أن يشربوا له كأس الفتوة، وأن يلبسوا له سراويلها، ليكون انتماؤهم إليه، كذلك أمر كل ملك بأن يسقي رعيته ويلبسها، لتنتمي كل رعية لملكها؛ ففعلوا ذلك، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها، وألبس كلاً منهم له، وسقاه كأس الفتوة[١١٣]. وفي هذا ما يستدل به على أن تفتّي حكام الأطراف للخليفة كان بمثابة إعطاء البيعة له، وأنهم كانوا يأخذون بيعة رعاياهم له نيابة عنه.

وكان ممن انتسب لفتوة الناصر شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند، وعز الدين كيكاووس السلطان السلجوقي لبلاد الروم، وأتابك سعد صاحب شيراز، والملك الظاهر غازي صاحب حلب[١١٤].

أما بالنسبة للطقوس التي اتبعت في استكمال إجراءات خلع سراويل الفتوة فنجد صورة منها عند ابن واصل، حيث يذكر أن رسول الخليفة الناصر وصل إلى صاحب حماة، الملك المنصور ناصر الدين أبي المعالي محمد، وتقدم إليه بأن يلبس للخليفة سراويل الفتوة ويلبس الأكابر له، فتقدم الملك المنصور إلى الشيخ سالم بن نصر الله بن واصل (والد المؤرخ المذكور) بعمل خطبة في الفتوة، فعمل خطبة بديعة في هذا المعنى، واستشهد بآيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: **سمعنا فتى يذكرهم** [١١٥]، ومنها قوله تعالى: **إذ أوى الفتية إلى الكهف** [١١٦]، وغير ذلك من الأخبار والآثار التي يحض فيها على عمل الطاعات، واجتناب المآثم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم على الظالم، وإغاثة الملهوف وحفظ الجار، وغير ذلك مما يشترطونه في الفتوة... وقرئت هذه الخطبة بمحضر من السلطان والأكابر، ثم لبس الملك المنصور وأكابر دولته سراويل الفتوة[١١٧].

ولم تكن العلاقة بين فصائل الفتوة المختلفة تخلو من التشاحن والنزاع والاختلاف في كثير من المناسبات، ويبدو أن الناصر وجد في تلك الاختلافات فرصة لتأكيد شخصيته وحضوره في هذه المؤسسة، ومناسبة لتثبيت سلطته المركزية فيها[١١٨]، وبالتالي فقد استغل الناصر بعض هذه الصراعات لإلغاء أحزاب الفتوة القديمة المختلفة، واستحداث منظمة فتوة جديدة واحدة ومركزية، يكون هو نفسه الشخصية المركزية فيها أو القبلة الجديدة لها.

ففي عام (١٢٠٧/٦٠٤) اتفق أن الفاخر العلوي، رفيق الوزير ناصر بن مهدي، كان له رفقاء فاختصم أحدهم مع

---

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ١٤٧ـ١٤٨.

(١١٠) Mason, 120.

(١١١) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

(١١٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٤٣.

(١١٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٧٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٠٦.

(١١٤) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٦٧ـ٧٠.

(١١٥) سورة الأنبياء، الآية ٦٠.

(١١٦) سورة الكهف، الآية ١٠.

(١١٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٤ـ١٦٥.

(١١٨) Mason, 123.

رفيق لعز الدين نجاح الشرابي، مقدم الجيوش العباسية، ونتج عن ذلك فتنة عظيمة بين أنصار الطرفين، ووصل الأمر إلى الخليفة الناصر الذي استنكر الأمر، فأهدر الفتوة القديمة، وأبطلها في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل الفتوة وينتسب إلى فتوته[119]، ثم أمر الخليفة وزيره بأن يجمع رؤساء أحزاب الفتيان، وأن يقوم بكتابة منشور يؤمرون فيه بالمعروف والألفة، وينهون عن التضاغن، وأن يقرأ هذا المنشور بمحضر منهم، ويشهد عليهم بما يتضمنه، فمن خالفه أخذت سراويل فتوته، وأبطلت فتوته، وعوقب بما يستحق من العقوبة[120].

وقد قام أبو الحسن محمد القمي، كاتب ديوان الإنشاء، بوضع المنشور المذكور، الذي يمكن أن ينظر إليه على اعتبار أنه الميثاق الجديد لحزب الفتوة الناصرية، الذي احتوى أحزاب الفتوة القديمة جميعها، حيث ذابت فيه وانصهرت في بوتقته. وقد تضمن هذا المنشور الأحكام العامة للفتوة، فهو يؤكد أولاً أن علي بن أبي طالب هو أصل الفتوة، حيث تنتسب إليه جميع أقسامها وأحزابها، وأنه كان يقيم حدود الشرع على اختلافها، فلا يعترض عليه أحد. وبما أن الخليفة الناصر هو الوارث الحقيقي لتلك الفتوة، فيجب أيضاً أن يقوم الجميع بتطبيق ما يضعه من قوانين، وأن لا يعترض عليه معترض. ومن تلك الأحكام أيضاً أنه لا يجوز لأحد من الفتيان أن يقتل رفيقاً، أو يحوي قاتلاً، أو يخفيه، أو يساعده على أمره، ومن فعل ذلك سقطت فتوته، كذلك فإن الفتى الذي يقتل عوناً من الأعوان أو أحد العاملين في ديوان الخلافة، فيجب أخذ القصاص منه وتسقط فتوته[121].

وسلم إلى كل واحد من رؤساء الأحزاب نسخة من المنشور، فيه شهادة ثلاثين من العدول، ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما هذا صورته: "قابل العبد ما تضمنه هذا المرسوم المطاع، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والإتباع والامتثال، وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعاً، وهذا المعروف من سيرة الفتيان المحققين نقلاً، وقد ألزمت نفسي إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الأشرف، فمتى جرى ما ينافي المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً لي والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحزب، ثبت الله دولته وأعلى كلمته، وكتب فلان بن فلان في تاريخه..."[122] فسيطرة الخليفة الناصر على أحزاب الفتوة وطاعتها له وامتثالها لتعاليمه تبدو من النص السابق واضحة لا لبس فيها.

وقد أشار أحمد بن إلياس النقاش في كتابه "الفتوة" إلى مفاهيم مشابهة لما ذكرنا، من حيث أن الناصر كان هو الموحد لأحزاب الفتوة والمشيد لأركانها، بعد أن حادت عن جادة الصواب، فيقول: "وبعد فإن أحزاب الفتوة، كانوا تائهين وعن الحق زائغين، إلى أن شرف الله تعالى الفتوة وكرمها وأعلى منارها بسيدنا الإمام الناصر لدين الله، فشيد بنيانها ومهد أركانها وألف أحزابها وأرشد طلابها..."[123].

وارتبط بنظام فتوة الناصر نشاطان آخران كان لهما على ما يبدو علاقة وثيقة مع الناصر وفتوته، فقد ورد ذكر رمي البندق والحمام المناسيب، إلى جانب الفتوة، في معظم المصادر التي تحدثت عن الناصر في هذا الموضوع[124].

أما عن رمي البندق فيستدل من المصادر أنها كانت واحدة من ألعاب الفتوة المعروفة والمشهورة بينهم، والتي يتفاخر بها علية القوم والفتيان، حيث استعمل الفتيان هذه الآلة في رمي الطيور والتصويب إلى الأهداف[125]. ولكن المسألة لم تكن مجرد لعبة أو هواية شائعة بين أفراد منظمة الفتوة، لقد كان الناصر جاداً في أن يتم الاعتراف به باعتباره القدوة في رمي البندق؛ بحيث لا يقدم أحد على رمي البندق إلا من ينتسب إليه. فانتسب إليه الملوك، وأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك[126]، تكريماً للخليفة واعترافاً

---

(119) تاج الدين علي، المعروف بابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٢١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

(120) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٢١ـ٢٢٢.

(121) المصدر نفسه، ص ٢٢٢ـ٢٢٥.

(122) المصدر نفسه، ص ٢٢٥ـ٢٢٦.

(123) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٥٤ـ٥٥ (مقدمة المحقق).

(124) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٦٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٩٣؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم ١، ص ١٧٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٤.

(125) سعيد الديوه جي، الفتوة في الإسلام، ص ٦٨ـ٧١.

(126) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٠٦؛ المقريزي، السلوك، ج٩، ق١، ص ١٧٢.

بسلطته ودوره الرئيسي في هذه اللعبة. ويروى أن أحد الأشخاص من بغداد، ويدعى ابن السفت، وكان من كبار الفتيان الرماة، أبى أن ينتسب للناصر في الرمي، وهرب من العراق إلى الشام؛ فأرسل إليه الناصر يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه وينتسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فأنكر عليه بعض أصدقائه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد ما رمى للخليفة الناصر إلا أنا[١٢٧].

وكان الرماة يستخدمون آلة البندق لاصطياد أصناف محددة ومشهورة من الطيور، كانوا يطلقون عليها اسم "طيور الواجب" أو "الطير الجليل" كالاوز، والعقاب، والنسر، والغرنوق. وكان الرامي إذا ما أصاب طيراً فإنه يرسله أو يحمله إلى الخليفة، ومعه الشهود من الفتيان؛ فيأمر الخليفة بأن يعلق الطير في المدينة، ويذكر اسم راميه وأنه رماه باسم الخليفة، ثم يأمر الخليفة بإعطاء الجوائز لحامله، وبنثر الدنانير على الطير تكريماً للمنتسب[١٢٨]. وكان صيد السباع من الأعمال التي تقتضي الإقدام والشجاعة، وقد اهتم به الناصر وأجزل العطاء لمن يمارس هذا النوع من الصيد، لما فيه من إظهار "الفتوة" بأحسن مظاهرها من القوة والعزيمة، فصار من الأعمال التي يقوم بها الفتيان، الذين جرت العادة أن يطلبوا الإذن من الخليفة للقيام بذلك، فيأذن لهم، وينعم عليهم، ثم يخرجون إلى الصيد[١٢٩].

أما بالنسبة للحمام الزاجل، أو ما تشير إليه المصادر بالطيور المناسيب، فيبدو أيضاً أنه كان ضمن اهتمامات الناصر الأساسية، ففي سنة (**٥٩٠/١١٩٤**) أمر الناصر باستفراخ نسل جديد من حمام الزاجل، وبذبح آبائها وأمهاتها، وجعل لها مراكز في أنحاء العراق، وفوض أمرها إلى قاضي قضاة الدولة العباسية[١٣٠]، وقد منع الناصر الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره[١٣١]. ومن الواضح أن هذه الحمائم شكلت جزءاً هاماً من نظامه الاستخباري الذي سبقت الإشارة إليه.

وهكذا يتضح لنا أن الخليفة الناصر لدين الله قد حاول أن يجعل من نفسه الشخصية المركزية وموضع الاهتمام في كل المسائل التي اهتم بها، كالفتوة ورمي البندق والطيور المناسيب، وربما كان مرد ذلك إلى أنانيته وحبه لذاته وحبه للسلطة من جهة، وإلى إدراكه للحاجة العملية إلى تلاحم سياسي ووحدة اجتماعية كان العالم الإسلامي بأمس الحاجة إليها من جهة ثانية[١٣٢].

لقد وقف المؤرخون من الناصر مواقف مختلفة بل ومتباينة في بعض الأحيان، فابن الطقطقا يصفه بالشجاعة والإقدام والذكاء والفطنة ومعرفة بالعلوم، ويؤكد بأنه كان له من المبار والوقوف ما يفوت الحصر، وأنه بنى من دور الضيافات والمساجد والربط ما يتجاوز حد الكثرة، وأن وقته كان مصروفاً إلى تدبير أمور مملكته، وإلى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الأموال. ومع ذلك فهو يشير إلى أنه كان يبخل، فيقال عنه بأنه ملأ بركة من الذهب، فرآها يوماً وقد بقي يعوزها حتى تمتلئ وتفيض شيء يسير فقال: ترى أعيش حتى أملأها! فمات قبل ذلك، ويقال ان المستنصر شاهد هذه البركة فقال: ترى أعيش حتى أفنيها! وكذلك فعل[١٣٣]. وهكذا يتبين لنا أن ابن الطقطقا كان موضوعياً في حكمه على الناصر، فأبرز بعض الايجابيات في سيرته وحياته مع ذكر بعض السلبيات أيضاً.

أما ابن الأثير فقد بدا تحامله على الناصر واضحاً، حيث قال عنه بأنه "كان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها..."[١٣٤].

وعلى أية حال فقد عمل الناصر جاهداً لإحياء مؤسسة الخلافة وتفعيلها باعتبارها عاملاً موحداً لأنحاء العالم الإسلامي، كما عمل على تركيز السلطة في نفسه بشكل كامل، من أجل أن يحكم السيطرة على التهديدات المحتملة

---

(١٢٧) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.
(١٢٨) سعيد الديوه جي، الفتوة في الإسلام، ص ٧١ـ٧٤.
(١٢٩) المرجع نفسه، ص ٧٥ـ٧٨.
(١٣٠) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٧٣.
(١٣١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.
(١٣٢) Mason, 119.
(١٣٣) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.
(١٣٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

لهذه السلطة من الأعداء الداخليين، ومن أجل أن يعيد تأسيس المركز التقليدي لسلطة الخلافة عبر العالم الإسلامي(١٣٥).

لقد كان الناصر ميكيافيللياً في فكره ومنهجه في الحكم، وفي أسلوبه الذي أتبعه لإعلاء شأن الخلافة، وإعادة القوة والاحترام للدولة العباسية، وهذا يظهر لنا بشكل جلي من خلال مواقفه المختلفة، والمتناقضة أحياناً، من أجل تحقيق ذلك الهدف. وهذا ما يذكرنا بالخطوط العريضة لآراء ميكيافيللي في كتابه "الأمير"، الذي تحدث فيه عن حاجة إيطاليا إلى أمير طموح وقوي ومستبد، يستطيع أن يوحد إيطاليا، ويرفعها إلى مصاف الدول العظمى، ممهداً بذلك الطريق إلى بداية ظهور علم السياسة، بما في ذلك فصل الأخلاق الفردية عن الأخلاق السياسية. إلا أن كل هذه الجهود التي بذلها الناصر قد توقفت بموته، وآلت الأمور من بعده إلى نهايتها المحتومة، المتمثلة بتدهور دولة الخلافة واندثارها، وهذا ما يؤكد نظرية ابن خلدون التي أشرنا إليها في بداية هذه الدراسة.

(١٣٥) Mason, 133.

الهوامش

١. ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ص ٢١٩ – ٢٢٠.
٢. المصدر نفسه، ص ٣٦٢ــ٣٦٣.
٣. أستاذ الدار، أو الأستادار، لفظ يطلق عادة على من يتولى قبض مال السلطان وصرفه. ونفهم من كلام ابن جبير أن أستاذ الدار في عهد الناصر لدين الله كان متكفلاً بدار الخلافة، وأنه كان يتمتع بالقوة والأهمية بدليل أنه كان يدعى له إثر الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة.
٤. Mason, Herber. 1972. Two Statesmen of Mediaeval Islam, Mouton & Co. 71-72.
٥. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٦، ج٩، ص ٩٨.
٦. المصدر نفسه، ص ٩٦ــ٩٧.
٧. Mason, 72.
٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦٨، ٦٩.
٩. Mason, 72.
١٠. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠٨.
١١. المصدر نفسه، ص ١٠٩.
١٢. المصدر نفسه، ص ١٠٩.
١٣. المصدر نفسه، ص ١٠٩.
١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٥، ج١٢، ص ٢٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠٩.
١٥. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤٨.
١٦. يرى ابن الأثير أن ابن العطار كان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤. وكان ابن العطار قد عين صاحباً للمخزن ببغداد سنة ٥٦٦/١١٧٠ ولُقب ظهير الدين. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١١.
١٧. المصدر نفسه، ص ١١٤.
١٨. Mason, 78-79.
١٩. ابن خلدون، ١٩٨١، كتاب العبر، بيروت، دار الفكر، ج٣، ص ٦٥١ــ٦٥٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤ــ١٣٥.
٢٠. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٥.
٢١. المصدر نفسه، ص ١٤٣.
٢٢. المصدر نفسه، ص ١٤٨ــ١٤٩.
٢٣. Mason, 81.
٢٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.
٢٥. Mason, 86.
٢٦. يشير ابن جبير إلى بعض مهام نائب الوزير وأنه كان مكلفاً بديوان الخلافة، فكان يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور، ولكن يبدو أن الناصر قد أطلق لقب "نائب" في عدة مناسبات على مبعوثيه الذين أرسلهم في مهام سياسية، كما أنه كان يفضل استخدام هذا اللقب ليطلق على الأشخاص الذين كانوا بمستوى الوزراء أو الذين كانوا يكلفون بمهام تناط عادة بالوزراء. انظر Mason, 87, note 7.
٢٧. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ١٩٨٠، بيروت، دار صادر، ص ٢٠٢ــ٢٠٣.
٢٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩؛ ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت، دار المعرفة، د. ت، ج١، ص ٣٩٣؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، المطبعة الحسينية، د. ت، ج٣، ص ٧٤؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.
٢٩. Mason, 92.
٣٠. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٩٢.
٣١. محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ١٩٦٦، بيروت، دار صادر، ص ٣٢٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، د.ن، د.ت، ج٣، ص ١٧٨؛ ابن

الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧ــ٢٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٤٧.

٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٨.

٣٣. ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

٣٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٠؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧.

٣٥. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٢؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧.

٣٦. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.

٣٧. الزهراني، محمد مسفر، ١٩٨٠، نظام الوزارة في الدولة العباسية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص ٤٩.

٣٨. السامرائي، خليل، وآخرون، ١٩٨٨، تاريخ الدولة العربية العباسية، جامعة الموصل، ص ٣٣٥.

٣٩. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٥.

٤٠. الجومرد، جزيل، ونزار قادر، ١٩٩٤، دور الخلافة العباسية في العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية، ٥٧٥ــ٦٠٠هـ، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مج ٢١، ع٥، ص ٤١٩؛ السامرائي، ص ٣٣٦.

٤١. الجومرد، ص ٤١٩؛ السامرائي، ص ٣٣٦.

٤٢. الجومرد، ص ٤١٦ــ٤٢٠؛ السامرائي، ص ٣٣٦ــ٣٣٧.

٤٣. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣.

٤٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٣ــ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٥٦ــ٦٦.

٤٥. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٦٦.

٤٦. Mason, 97.

٤٧. Ibid, 97.

٤٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١٨؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤؛ الزهراني، ص ٦٦ــ٦٧.

٤٩. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٠؛ الذهبي، دول الإسلام، مطبعة دار المعارف، حيدر أباد الدكن، ١٣٣٧هـ، ج٢، ص ٧٦.

٥٠. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، دار المعارف، ص ٢٩؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣١.

٥١. ابن الدبيثي، ص ٣١؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٤.

٥٢. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٤ــ٦٥٥.

٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٠ــ٢٣١.

٥٤. Mason, 100.

٥٥. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٢؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٥.

٥٦. Mason, 100.

٥٧. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ١٨٤.

٥٨. المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

٥٩. العبود، نافع، ١٩٧٨، الدولة الخوارزمية، جامعة بغداد، ص ٢١ــ٢٢.

٦٠. المرجع نفسه، ص ٣١.

٦١. المرجع نفسه، ص ٣٤ــ٣٥.

٦٢. المرجع نفسه، ص ٣٨.

٦٣. المرجع نفسه، ص ٢٤٢؛ Mason, 103.

٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤١ــ٢٤٢.

٦٥. المصدر نفسه، ص ٢٤٢؛ Mason, 103.

٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٧٢.

٦٧. Mason, 104.

٦٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٣.

٦٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٧٦؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص ٨٧.

٧٠. الجومرد ونزار قادر، دور الخلافة العباسية، ص ٤٠٥.

٧١. كان حاكم آلموت محمد الثاني (٥٦١/١١٦٦ــ٦٠٧/١٢١٠)، وهو والد جلال الدين حسن، قد تابع سيرة أبيه حسن بن محمد (٥٥٧/١١٦٢ــ٥٦١/١١٦٦) والتي تميزت بإعلان نفسه خليفة الإمام وداعيته وحجته، وذلك بناء على رسالة قال بأنها جاءته من الإمام المستتر. وفي عام ٥٥٩/١١٦٤ أعلن حسن القيامة وقام بإعفاء أتباعه من تكاليف الشريعة فارتكبوا شتى أنواع المحرمات. وقد تطورت عقيدة القيامة هذه في عهده إبنه محمد الثاني الذي أكد أنه ووالده كانا من أبناء نزار وأنهما كانا إمامين. لمزيد من التفاصيل انظر: برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ترجمة سهيل زكار، ١٩٧١، بيروت، دار الفكر، ص ٨٧، ٩٣.

٧٢. لويس، برنادر، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص ٩٣ــ٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢١١.

٧٣. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٠٥ــ٣٠٩؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٥٧ــ٦٥٨.

٧٤. لويس، الدعوة الإسماعيلية، ص ٩٥.

٧٥. المرجع نفسه، ص ٩٦ مشيراً في ذلك إلى رأي الجويني وغيره من المؤرخين الإيرانيين السنّة.
٧٦. المرجع نفسه، ص ٩٧ حيث يشير إلى رأي جوزيف فون هامر.
٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٦٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٠٧.
٧٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٣٠ـ٣٣١.
٧٩. المصدر نفسه، ص ٣٣٢ـ٣٣٤.
٨٠. فاسيلي فلاديميرو فتش بارتولد، تركستان، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ١٩٧٤، النسخة الروسية المنشورة في موسكو عام ١٩٦٣، الخرطوم، د.ن. ص ٥٦٨ـ٥٧١.
٨١. Mason, 111.
٨٢. Ibid, 111-112.
٨٣. ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.
٨٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٠٧.
٨٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٣.
٨٦. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار النهضة، د.ت، ص ٧١٦ـ٧١٨.
٨٧. الدُّواج: معطف غليظ.
٨٨. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧١٣ـ٧١٤.
٨٩. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٩٢.
٩٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٢٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩.
٩١. Mason, 92.
٩٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ١٩٧٠، بيروت، دار صادر، ج٣، ص ٤٤٦.
٩٣. الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق، الحوادث الجامعة، ١٩٨٧، بيروت، دار الفكر الحديث، ص ٤٢.
٩٤. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد زيادة، ١٩٥٦، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج١، ق١، ص ١٦٧.
٩٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٣٢.
٩٦. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧١٧ـ٧١٨؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.
٩٧. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص ٥١.
٩٨. المصدر نفسه، ص ٤٧ـ٤٨.
٩٩. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت، ج٥، ص ١٠٣.
١٠٠. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص ٣٨٨ـ٣٨٩.
١٠١. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٢٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٩٥١، ج٨، ق١، ص ٤٢١ـ٤٢٢.
١٠٢. أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم المعروف بابن المعمار البغدادي الحنبلي، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد ورفاقه، ١٩٥٨، بغداد، مكتبة المثنى، ص ٥٢ـ٥٣ (مقدمة المحقق).
١٠٣. من هذه المصنفات كتاب الفتوة لابن المعمار الذي أشير إليه في الهامش السابق، وكتاب الفتوى أو تحفة الوصايا لأحمد بن إلياس النقاش الذي يؤكد بأن أحزاب الفتوة كانوا تائهين عن الحق سالكين لطريق الضلالة إلى أن تشرفت الفتوة بانتساب الخليفة الناصر إليها، المرجع السابق، ص ٥٤.
١٠٤. سورة الكهف، الآية ١٣.
١٠٥. ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ١٣٤ـ١٣٥.
١٠٦. المصدر نفسه، ص ١٠٥ـ١٠٧.
١٠٧. المصدر نفسه، ص ١٣٩ـ١٤٧.
١٠٨. المصدر نفسه، ص ١٢٣ـ١٢٦.
١٠٩. المصدر نفسه، ص ١٤٧ـ١٤٨.
١١٠. Mason, 120.
١١١. ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.
١١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٤٣.
١١٣. المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٧٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٠٦.
١١٤. ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٦٧ـ٧٠.
١١٥. سورة الأنبياء، الآية ٦٠.
١١٦. سورة الكهف، الآية ١٠.
١١٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٤ـ١٦٥.
١١٨. Mason, 123.
١١٩. ابن الساعي، تاج الدين علي بن أنجب، الجامع المختصر في عيون التوارخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، ١٩٣٤، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ج٩، ص ٢٢١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.
١٢٠. ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٢١ـ٢٢٢.
١٢١. المصدر نفسه، ص ٣٢٢ـ٢٢٥ حيث نجد نص المنشور كاملاً.
١٢٢. المصدر نفسه، ص ٢٢٥ـ٢٢٦.
١٢٣. ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٥٤ـ٥٥ (مقدمة المحقق).
١٢٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص ٦٦٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص ٩٣؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، قسم ١، ص ١٧٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٦٤.
١٢٥. الديوه جي، سعيد، ١٩٤٠، الفتوة في الإسلام، الموصل، المطبعة الكلدانية، ص ٦٨ـ٧١.
١٢٦. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٠٦؛ المقريزي، السلوك، ج٩، ق١، ص ١٧٢.

١٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

١٢٨. الديوه جي، الفتوة في الإسلام، ص ٧١ــ٧٤.

١٢٩. المرجع نفسه، ص ٧٥ــ٧٨.

١٣٠. ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص ٧٣.

١٣١. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

١٣٢. Mason, 119.

١٣٣. ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٢٢.

١٣٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

١٣٥. Mason, 133.

Al-Nasir LiDin Allah Al-Abbasi Evidence of Regaining the Power of Caliphate and Ibn Khaldoun's Theory of Determinism

A. Al-Omari*

ABSTRACT

In his Muqaddimah, *Ibn Khaldun* pointed out that a dynasty goes through different stages, and eventually, it will be destroyed in the final stage. However, in this final stage, we might see a glimpse of glory and power. But that is the light of destruction and not of revival.

This study gives an example, from the Abbasid period, of *Ibn Khaldun's theory.* The Caliph Al-Nasir Li Din Allah tried to establish himself as a powerful ruler. He took upon himself several political, military and social actions to accomplish that goal. All that, however, did not protect the caliphate from its fate of destruction, which came soon after his death.

* Department of History, Yarmouk University, Irbid, Jordan. Received on 31/3/1998, and Accepted for Publication on 15/12/1998.